رواية
NOVEL

B O T H A Y N A   A L - E I S A

بثينة العيسى

سعار



بثينة العيسى

سعار



سعار / رواية عربيّة
بثينة العيسى / مؤلّفة من الكويت
الطبعة الثانية ، 2006



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد سيب ®

لوحة الغلاف : **جاك يونغرمان / أمريكا**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذ الطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

ISBN 9953-36-915-1

سعار

هذه الطبعة..

لا أستطيع - في العادة - أن أقرأ كتابًا دون أن أتصرّف فيه، أحذف جملاً وأضيف أخرى، أصنع مشاهد وأغيّر وجوه النهايات التي لا تواكب مزاجيّ.. فكيف بنص أنا كاتبته؟

أعرفُ - على أقل تقدير - بأنني لو أردتُ أن أعيد كتابة سعار فلن تجيء بالزخم ذاته ولا بالوحشية ذاتها التي أردتها لها، ولا أنا سأعيشُ لحظة الكتابة طازجة ومدوّية، تكنس العالم وتأخذه معها إلى حيث لا أدري.. ولكنني أيضًا، أعرفُ بأن لا شيء يقف أمام حرية الكاتب في التمدد خارجه والانسلاخ عنه وتجاوز مقدرته، ولا حتى الورق! ولأجل هذا منحت نفسي حق التجرؤ على نصي القديم وتغييره بما أعتقد بأنه يصب في صالحه، وفيما لا يتعارض مع حقيقته.

وبهذا، حذفتُ بعض الفقرات التي بدت مكرورة، وغيّرتُ قليلاً في شكل «التقسيم» الذي اعتمدته في كلٍّ من «الهامش» و«المتن».. وخففتُ من دراماتيكية بعض المشاهد التي شعرت بأنها لم تسلم من النمطية التي تجترها شاشات التلفزيون، لقد حاولت - ولا أزعم أنني نجحت - بأن أجعلها أبسط وأخف وأكثر قابلية للحدوث على الأرض.

باستثناء التدخلات الطفيفة على جسد النص، ما زال النص

يحافظ – من وجهة نظري – على روحه القديمة ، وأعيد اليوم نشره مرفقًا بتقديم الصديقة الشاعرة سعديّة مفرّح ، على الرغم من كل ما أثاره إرفاق التقديم من انتقادات ، ليس فقط لأنني لا أستطيع إلا أن أشعر بالاعتزاز برأي أقدّره كثيرًا ، وقلم أحبه كثيرًا ، بل لأنني أؤمن بأن أي نص (أي نص!) هو جهد يتخلّق بمبادرة فردية ، ولكنه أيضًا ثمرة تواصل ثقافي وعمل جماعي يعمل في الخفاء ويشحذ فينا الرغبة في المضيّ . . لقد كانت سعدية مفرّح ، موجودةً دائمًا ، من أجل أن أكتب أكثر ، ولها الشكّر .

يونيو ٢٠٠٦

بثينة العيسى

هذه ليست مقدمة

هذه رواية ناجحة

وهذه روائية ناجحة جدًا

وبين الرواية والروائية عالم فائض بأسئلته الحارقة ، لا يستحق أكثر من خلود ما في لجة الكتابة وسحرها الإنساني المغامر في منتهى الموهبة ، حين تصير الموهبة هي السؤال ، وهي الإجابة ، وهي المحرض على الآتي من الأسئلة والإجابات في علاقة مشتبكة مع كل ما نؤمن به من قيم ، وما نتوارى وراءه من ضرورات ، وما نمنح وجودنا تحت وطأته المستمرة من شرعية الغياب المفترضة لكينونتنا المفترضة .

تشتبك بثينة العيسى في هذه الرواية ، إذن ، مع العالم بأكمله ، عبر لغة مفرطة في رهافتها ، إلى حد أن تكون أغنية موزعة في معمار موسيقي يتراكم تدريجيًا ما بين المتن والهامش ، فتفيض العذوبة ذهولاً وبكاء ، ولكنها قاسية أيضًا إلى حد الوجع المقيم في تلافيف الروح منذ أزمان سحيقة ، لا بدّ أن بثينة عاشتها بتفاصيلها الدقيقة قبل أن تصير تاريخًا مشاعًا بين نساء الكرة الأرضية ، وهوية سرية لرجالها .

هنا إذن امرأة باهية تكتشف بداياتها مرسومة على هامش من نسغ الكون بكل تجلياته ، وروائية عريقة الخبرة بحرفتها ، على الرغم

من أنها لم تغادر بعد الثانية والعشرين من عمرها (لا أدري بالضبط ما العلاقة المفترضة بين حجم الموهبة وعمر الموهوب؟!!) ، وهي بهذه الخبرة تحاول أن تعيد صياغة العالم كله ، وفقا لما ترتب لديها من علائق جديدة بين الكائنات في معنى الكتابة وتاريخها أيضًا ، وهي تنجح كثيرًا في تلك المهمة ؛ لأنها تجيد اكتشاف الحياة عبر اكتشافها لذاتها الذاهبة في منتهى الشغف الروائي بجلد كتابي واثق من تفاصيل سيره وصيرورته ، وحيل أنثوية موروثة في سبيل رسم نهاية للبقاء خلودًا في الدهشة وما تؤدي إليه .

«سعار» نص روائي لا يريد أن يكتمل ، لأنه نص مفتوح على أسئلة تدور في فضاء من القلق الوجودي الفادح في سوداويته ، ولكن الفاضح في تعريته لكل ما نحاول أن نخبئه تحت ركام من الإرث الإنساني النفسي .

وعلى الرغم من أن «سعار» هو النص الروائي الثاني لكاتبته بعد نصها الأول ، الجميل والمدهش بدوره ، «ارتطامٌ . . لم يسمع له دويّ» ، إلا أنني وقد كنت على تواصل مع الكاتبة وهي تكتبهما واحدًا بعد الآخر ، وقرأتهما ، بعد ذلك مخطوطين ، أرى أنها في «سعار» بالذات تضع سؤالها الروائي الأول بحكمة مكتسبة وذكاء فطري . . وموهبة تتألق بينهما باطراد عبر أحداث تتنامى في أجواء خالية من الحدث التقليدي ، وهي تسجل كل ذلك برصانة لغوية ، على الرغم من السخرية السوداء التي نادرا ما تلجأ إليها الروائيات في ثقافة الرواية

العربية الراهنة ، مما أكسب هذا النص إضافة لصالح المتعة في القراءة واللذة في تتابعهما .

هذه ليست مقدمة ، ولكنها إشارة إلى هذه الرواية الناجحة . . وهذه الروائية الناجحة جدًا .

سعدية مفرّح

ديسمبر ٢٠٠٤

الإهداء / الاعتذار

يوسف بن عيسى

وحدك تشطبُ الأذى ، تركلُ الحصى ، تمنحُني المضيّ

مافتئتُ

أحـــبّك

يــا أبــي

«كلهم سفلة»

علي السبتي

الجزء الأول

الهامِش

الفصل الأول

١

لو ضمّ ركبتيه لتقلّص خوفه إلى النصف ! كان متأكدًا من فكرته كما لو أنه يتلقاها من حتمية مقدسة ، ولكنه لم يضمّهما ، وأحس بحكّة في ساقه ولكنه لم يحكّها ، كان خوفه أكبر من رغبته بالتعبير عن الخوف . . الشاخص في صمتهِ ، بساقين مرتعشتين مثل كومة أسئلة بردانة ، لا يميز معالم المكان من حوله / المكان الذي يزوره للمرة الأولى ، أو يتساءل على أقل تقدير : ما معنى هذا؟

الأيام الأخيرة مرّت على نحوٍ غريب بالنسبة للرتم الذي كانت تمضي إليه حياته . . رتم؟ أي رتم؟! الحكة تتضاعف ، تتسلق ظهره ، شحمة أذنه ، استقرّت هناك ، لم يحرك ساكنًا ، *لن يحك أذنيه*! أي شيء سيكون ممكنًا ، كأن تصله الآن رسالة بهاتفه النقال تنهي الأمر برمّته ، ولكنها لا تعرف رقمه ، أم تراها تقدر على التكهن به؟ لا ،

ستأتي هذه المرة، لأنها تريد ذلك..

لا يستطيع التفكير بالأمر، ولا بغيره! **خمس سنوات إذًا !؟** خمس سنوات عجاف، خمس سنوات باردات، لماذا - إذًا - تجري الأمور بهذا التسارع.. الآن؟ وكأن الأمر محض تعويضٍ للخواء الشاسع الذي اكتسح أيامه، وماذا يعني - يا إله السماء - أنها جسورةٌ بما يكفي لتطلب أن تراه؟ وهذا المكان.. هل تجيء إليه كثيرا؟ إنه فارغ، مقهى فارغ ! يلائمها، يلائمها أن تكون وحدها، هي التي تشغل العالم (**هكذا يفكر فيها**)، يلائمها أن تحلق خارج الفوضى التي تحدِثها، يلائمها أن تدهن يديها بالكريمات وتفكر بالأشياء التي بلا معنى، وتترك للآخرينَ لذة اختلاسِها في أحاديث الليل الأخير..

يرسمها.. تغطس في الأريكة البنية الفسيحة، تستغرق بالتفكير بشكل يجعلها تبدو.. جميلة، ومغلفة بالمغازي، **إنها جميلة!** أصابعها دقيقة وشفتها وردية ورموشها.. **لا!** لا يمكن أن يتوقف الأمر على ذلك، ليس اللحم هو ما يمنحها السحر، إنه الإحساس الفادح بالعمق، العميق كالسر، السرّانيّ كالغموض، شيءٌ من روحها يطفو فوق تلكم الأعين، إنه لو جرّب أن يشرط قسماتها منفصلة لوجدها بشعة! ولكنه الكلّ المهيب الذي يكوّنها هو ما يجعلها.. جميلة! هي الكل المتكامل الذي لا يشبهُ سواه، الفوضى التي يتساءل من أي أودية الأرض وبروج السماء تجمّعت

لتتمخض تلك الأنثى ، حاول أن يبحث في أفكاره عن امرأة تشبهها ، لم يعثر على واحدة ، عثر على مزيج نساءٍ أعجبنه ذات يوم ، عقد غير متجانس يربط بين سعاد حسني وبرتني سبيرز وجميلة بوحيرد ومارغريت تاتشر ، وفكّر . . إنها امرأة تتحرّك في جميع الجهات ، مثل السديم ، هذا هو السرّ ، إنها كثيرةً بشكلٍ يجعل من الصعب محاصرتها ، مثل لوحةٍ تتمدد خارج البراويز ، تستطيل وتتقلص بمزاجية خارج كل ما يمكن أن تفترض من قوالب . . انتابه تعبٌ غريبٌ كما لو أنه يركض . . إنه يتذكر كل شيء ، **كل شيء!** يتذكر أشياء لا تخطر على البالِ ، الحلزون الذي كان ملتصقا بجذع الشجرة يوم تسلقا جبال مونتانا ، التلافيف البنية في قوقعته ، التواء العشب أسفل القوقعة ، يذكر كل هذا ، ولكن ماذا عنها؟ هل تذكر ذلك الحلزون؟

المفروض أنه ربيع آذار الشفيف ، ولكن لا قداسة للفرضيات في الكويت ، بدا الشارع وكأنه يجأرُ من التمدد الثقيل للظهيرة فوق ظهره ، فكر : لحسن الحظ أن الشمس باذخة السطوع هنا ، شيءٌ يبرر ارتداء نظارات شمسية داكنة ، شيءٌ يسمح للعشاقِ أن يتأملوا حبيباتهم دون أن تقتلع أعينهم .

ارتباكه يبث كهرباء فاضحة في المكان ، نظرات النادل تشي بذلك ، يكادُ يقسمُ بأنه يسخر منه ، أن هذا الوجه المصمت يخفي أكثر النكات حموضة ، سرعان ما سيتحول المشهد إلى حكاية تنتقل

في السديم الإلكتروني ، نكتة عن شاب يأتي لموعده مع امرأة (خاصة وأنها جميلة) ببقع ماء تحت إبطيه ، سينشرها بالبساطة الكريهة التي تجري بها الأشياء هذه الأيام ، كم يشعر بالضعف! وكأنه جاء إلى هنا بالضبط لكي يتصارع مع العالم ، مع امرأة تملك العالم! لو كان هو من قرر مكان اللقاء لجاء الموقف أكثر بساطة ، ولكنه لن يكون سهلا على أي حال ، كان كمن يلعب على أرضِ خصمه ، وتساءل - بغباء - ترى . . أي فريق تشجّع؟

٢

ثلث ساعة من التعرّق ، ثلث ساعة من الكهرباء ، خفقانٌ مفجوع / و . . أراد أن يهرب! ولكنه تأخر كثيرًا .

أربكه التفاتها ، عندما خيّل إليه بأنها تبحث عنه ، لعله كان يحتاج أن يمتص وجهها الكثير على دفعاتٍ ، وكأن هذا الكمّ الهائل الذي تضخه (من الجاذبية أو اللعنات أو الفوضى أو أي شيء لا يستطيع تحديده) سيصرعه ، رفعت كفها تحييه (هل تخيل ذلك؟) ، لا يذكر أنها ابتسمت ، نظراتها مثبتة إلى الأرض بمسامير ، بتلك الظلال الداكنة أسفل عينيها ، ألا تنام؟! تنظر إلى الأرض وحسب ، إلى البلاطات ، أو إلى شقوق البلاطات ، فتح النادل الباب وتبادلا وشوشاتٍ ودودة ، هل تربطهما معرفة؟ شعر بأن النادل يشير إليه بهزة رأسهِ تلك ، عندما رفعت عينيها - أخيرًا - كانت تبتسم .

حرارةٌ / حكة في الساق اليمنى / لزوجة تحت إبطيه ، وينتبه لتوه فقط بأن أظافره متسخة ، وبأنه يرتدي البنطلون الذي ألحّت عليه أمه

أن يتخلص منه ، لماذا يتذكر الأشياء المحرجة عندما يكون الأوان قد فات؟

- ريحة البحر فظيعة ، مو؟

سألته وقد انكمشت ملامحها باشمئزاز لا يخلو من إثارة .

- آه . . نـ (سعل) نعم ! (حاول أن يبتسم)

- كأنها ريحة بيض !

- أها . . (كح !)

- ممتاز .

اختلس وجهها بعينيه ، تساءل إن كانت جادة أم تراها تسخر من العالم كشأنها؟ لا يستطيع ترجيح احتمال على آخر عندما يتعلق الأمر بها ، إنها تجعل كل شيء واردًا ومنطقيًا ، وكأنها وطنٌ للأفكار الشاذة ، القديسة التي نذرت نفسها لإيواء الآراء التي لا يقتنيها أحد ، جلست - بشكلٍ فوضويّ - على الأريكة ، تماما كما تخيلها قبل لحظات ، رمت بحقيبتها أرضًا ، نظرت إليه وابتسمت ، بدت لطيفةً فجأة ، وقبل دقائق كانت تبث فيه الرعب ، فكر بأنه لن يفهمها أبدًا ، آلمه ذلك .

سألته . . بدا صوتها مزيجًا مشوشًا من الأنوثة البضةِ والطفولة المتطرّفة :

- ش أخبارك؟

- بخير .

أحسّ - وهو يشعرُ بغبائه - بأن اللزوجة تحت إبطيه تتضاعف ،
هل قال بخير؟! سألها :

- إنتي ش أخبارك؟

فتحت حقيبتها وأخرجت علبة علك أبو سهم ، تناولت واحدًا ثم
مدّت له بالعلبة ، كما لو أنها تقدم له سيجارة وقالت :

- مريح هالمكان ، مو؟

- وايد تقعدين بهالمقهى؟ (قالها وهو يتناول منها العلكة)

- ساعات .

حدس بأنها لا تريدُ إخباره بأنها تجيء إلى هنا كي لا يباغتها
بحضوره يومًا . . كيف ستتصرف لو تحرك العالم خارج الخطة التي
ترسمها هي له؟

- أحب أقرا بهالمقهى .

- تدرسين؟

- لا ما أدرس ، أقرا !

- شتقرين؟

- أقرا وبسْ .

سألتهُ وهي تلفظ العلك في منديل :

- ما ودّك تعرف ليش طلبتك؟

- بلى .

- شنو تتوقع؟

- ما أدري .

- ما ودك تسألني عن السبب؟

- بلى .

- عيل ليش ما تسأل !

- لأن . . لـ . . ما أدري !

أطلقت ضحكة وقحة ، حادة ومدببة كنصل ، إنها تجعل منه مهرجًا ، تجعله في مواجهة سافرة مع رغباته التي تعرفها جيدًا ويعرفها . . السافلة ! قال وقد اكتسى صوته برعشةٍ مزعجة :

- ممكن أعرف ليش بغيتي تشوفيني؟

- ليش لا؟!

إنها تتذاكى . .

شعر وكأن روحه تذبلُ في غربةٍ باردة ، شعر بأنه قد زج نفسه في موقف موغل في تفاهته ، هل أحضرته هنا لتجعل منه أضحوكة؟ ذابت ملامحه في تقطيبة ، غمزت بعينها وهي تقبض على الفنجان بكلتا يديها ، المرارة تتفاقم ، علقمٌ في الصدر والحلق والـ . .

سألت :

- ما تحب القهوة؟

- أبي أعرف ليش طلبتي تشوفيني .

- إنت ما تبي تشوفني؟

تبًا! إنها تعي أبعاد سطوتها جيدًا ، تعرف بأنها فاتنة ومعشوقة

وهائلة وتتصرف على هذا الأساس، تدجج كل أسلحتها في وقت واحد، الخبث والدلال والدناءة والشغف، كلها معًا، أمامه، هو الأعزل الواضح في نواياه!

- يمكن مابي أشوفك؟

- عيل ليش حضرت؟

إنها تعرف.. .كيف يمكن أن لا يجيء زحفًا أو حبوًا لمجرد أنها ستكون هنا وستجلس أمامه وتنفخ العلكة وتشرب القهوة، بعد أن تذيب فيها أربعة أكياس من السكّر ليراقب طقوسها بافتتان وضراعة؟! هل ستبدأ الآن بإذلاله والادعاء بأنه هو الذي أراد رؤيتها وبعد.. خمس سنوات؟ عبأ صدره بالهواء، بدا وكأنه يرتب في رأسه الكلمات التي يريد قولها، تنفس مرارًا أمام عينيها وبدا جليًا لها أنها تفهمه أكثر مما يريد:

- حسبت عندك شي مهم تقولينه، بس مدام ما عندك سالفة أنا أستأذن..

- لا.. لا.. لا تروح!

قطبت وجهها بطفولة، مدهشٌ أن يحمل وجه تلك الأنثى النزقة هذا الكم الهائل من البراءة الفجائية! توسّلت:

- أزعجتك أدري، أنا سخيفة أدري، مادري شفيني، يمكن مقهورة منك.. يمكن؟ أنا بس شوي.. أعصابي تعبانة، وأحس.. إني.. إني..

بدت أكثر توترًا ، حدس بذلك لأنها راحت تفتش في حقيبتها عن شيءٍ ما ، حبتي بنادول *إكسترا* :

- تعبانة؟

- الشمس .

- شفيها؟

لم ترد ، ماذا تقصد بالشمس على أي حال؟ ارتاب في الأمر ، تذكر أن بوسع المرء أن يبتلع ست حبات بنادول دون أن يخشى شيئا ، رمقها بحذر ، هل تحاول خداعه؟ ولكنها شاحبة على أي حال ، في تلك اللحظة لاحظ كم تغيّرت منذ عهده بها ، لا بدّ وأنها مرّت بالكثير ، إنها - على أي حال - ليست فتاة السابعة عشرة التي يعرف ، أو ظن أنه يعرف .

عندما فرغ من فنجانه وجد نفسه محاصرًا بعينين مرعبتين ، أشبه بعينيّ حيوان تنضحان بالخبث والخوف ، أشياء كثيرة ، لم يجد بينها ما كان يبحث عنه ، لا . . لم يجد حبًا ، إنها تحدق فيه كما لو أنها لا تراه ، مثل آلةٍ مسجلة انفرجت شفتاها وسألته بهدوء :

- تحبني؟

ماجت ملامحه بهلع . .

إنها مباغتة ومدوّية حتى في الطريقة التي تسكنُ فيها لتحدق في الخلاء بشعور عارم باللا جدوى ، بدا أنها تتألم في تلك الابتسامة ، تقبض على الفنجان بقوة كما لو أنها تستمدّ منه قوةً ما ،

هل دعته إلى هنا بعد خمس سنواتٍ من أجل إحياءِ بذورِ ذاكرة متيبسة؟

سؤالها ينسف كل ما خطط له ، النسيان العميق التام ، البياض الأخرق البليدُ عندما يلتهمُ تفاصيل الذاكرة ويصبغ الألوان بالحيادِ ، الطرد والخزي وليالي الانتظار التي تركته يجابهها وحيدًا ، هل جاءت لتوقظ فيه كل هذا مرة أخرى ، وهو ما لن يسمح بحدوثه! أم جاءت تخبره ببساطة : **لقد انتصرتَ ! انتصرت بعد أن فقدتَ الأمل بذلك** ، مبروك! علق في فوهة السؤال ، يتأرجحُ بين الاحتمالين ، ويتساءل - بسذاجة - إن كان عليه أن يبتهج أو يتألم ، حتى المشاعر تغدو معها إما معطّلة أو مشبوهة ، رمقها بارتياب ، تنظر إلى الشارع وكأنها نسيت وجوده ، ونسيت على نحوٍ تام السؤال الهائل الذي قذفته في وجهه ، وكأنها فعلت ما عليها وانتهى دورها عند ذلك المفصلِ الحالكِ ، لقد كانت تغوص في غفوةٍ عميقة في عالمها الخاص .

لماذا لبى رغبتها بلقائه إن لم يكن يحبها؟ ألم يكن يضع احتمالا لاستئناف علاقته بها أصلاً؟ في تلك اللحظة ، عندما وجد نفسه إلى جانبها عرف بأنه لا يستطيع المزايدة على حقيقته أكثر ، ولكنها السهولة المرعبة التي تكلل اللحظة الحلم ما يفقد الموقف كل البهجة المفترضة ، على الأقل في أحلام يقظته عندما رسمَ تفاصيل لقائه بها مرارًا . .

لم يجسر على الإجابة ، يطرق برأسه/ يردد «**ينبغي ضمان النتائج!**» ، ينبغي أن يتأكد أين يضع قدمه ، وأين يمضي ، وهو أكثر من يعرف بأنه ماثل في جناب أفعى يسهل الانجراف إليها ، وليس بالضرورة معها!

- أجاوب ألحين؟
- إيه .
- ليش؟
- ما أحب أنتظر .
- أنا انتظرتك خمس سنين سعاد .
- أنا كنتُ صريحة معاك مشعل ، قلت لك إني ما أحبك .
- وألحين ، شنو إلي تغير؟
- مو مهم ، أنا موافقة .
- موافقة على شنو؟
- على الزواج .

بُهتَ ، لا يليق بالأنثى أن تقدم عروضًا من هذا النوع في العالم الذي يعرفه ، ولكنه لم يستطع أيضًا أن يكبت انفعاله ، ترى : ما الذي تقصده بـ «لا يهم» ، إن كانت تحبه فلماذا لا تصرِّح بذلك ، وهي لا تبدو من النوع الذي يواجه مشاكل أمام اعترافات بهذه الحساسية ، ولكن الأمر يبدو مثل جلسة تحقيق ، أو لقاء مدراء عمل ، أكثر من كونه لقاء عاشقين قديمين .

- قول لي إذا تحبني أو لا .

إنها تصوّرُ الأمر مثل عرضٍ رخيص ، أزعجه ذلك ، ربما لأنها الأنثى الوحيدة التي انتظرها في حياته ، وانتظرها جدًا !

- يحق لي أعرف ع الأقل شنو إلي تغير بالنسبة لك؟

- ما أدري .

- ما تدرين؟

- شفتك بالكلية ذاك اليوم .

- إيه؟

- حسيت إني أحتاجك . .

ازدرد ريقه ، بسمل في قلبه وأطلق السؤال :

- وإذا بطلتي تحتاجيني في يوم سعاد ، شتسوين؟

صعّرت خدها بسخرية ، عيناها تلمعان ، هل كانت تبكي؟ تضحك؟ راحت تتضاءل في المقعد ، مثل نطفة ضامرة آخذة في التقلص ، بدت له - مرة ثانية - كحيوانٍ ، جميل وخطر .

زفر ، نكّس رأسه بيأسٍ ، قرر أن يصمد .

- ما أقدر أجاوبك .

- كذاب . .

. . في ثغرها ابتسامة موجوعة .

- ما في منطقة وسط بين الإحساس واللا إحساس .

- بس أنا تألمت بسببك وايد .

- شسوي لك مثلاً؟ أعطيك تعويض مالي؟!

شعر بأن عينيها تنبضان بكثير من الكره ، يقسم إنها تشتمه في داخلها ، كفت عن الابتسام و . .

- انسَ الموضوع .

- وين رايحة؟

نهضت بغتة وما عادت تنظر إليه ، حتى إنه ما عاد يشعر بأنه موجود ، توجهت بخطوات ثقيلة وسريعة نحو باب المقهى ، أثقل من الخطوات التي دخلت بها ، فتحت الباب ، لفحتهما ريحٌ حارة ، ورائحة البحر الكريهة . .

الفصل الثاني

١

هذه المرة ضمّ ركبتيه إلى صدره ، تكوّر ، تدحرج ، اندسّ تحت الأغطية ، وبوضعه الجنينيّ ذاك كان يحن إلى كثير من العتمة .

الأسئلة تفغر فاها ، فاها كريه الرائحة ، الأسئلة المتبرجة مثل شرذمةٍ من الساقطات! وهو ، حتى اللحظةِ إياها لم يكن متأكدًا من كونه تصرّف بشكلٍ صحيح ، ولا يعرفُ إن كان عليه أن يعدّ نفسه ظافرًا ، أم أحمقَ ، ضغط رأسهُ بين ركبتيهِ ، أغوته فكرة بأن مخه سيسيلُ من رأسه في سائلٍ مخاطيّ فاقع الخضرة ، فتنه المشهد ، سيلغي المخاط الأخضر كل آلامه ، كل الأسئلة : بأي شيءٍ تبرر أيها الغبي هذا المذاقَ المريع في فمك بعد أن نفدت ناجيًا من فخاخ الغواية؟

همهمَ : امرأة خطرة ، لاسيما عندما تبتسم ، لحظة يطفو على

وجهها غمام الطفولة الملائكية ، البراءة المتهافتة الرقراقة ، شيء يستحيل استيعابه بكل النزق الطافحِ من عينيها ، على الرغم من أنها بدت وهي غاطسة في الأريكة في أكثر حالاتها ضعفًا ، هل كانت ضئيلة حقًا أم أن الأريكة كبيرة؟ تراها الآن حزينةً وغاضبة لأنها أضاعت وقتها معه؟ أم أنها مشغولةٌ ببردِ أظافرها وقد نسيت الموضوع تمامًا؟ لعلها تقرأ ، هذا ما تفعله أغلب الوقت ، ولهذا تبدو أكبر مما هي عليه وأكبر مما ينبغي ، وكأنها عاشت حيوات كثيرة في عوالم بعيدة تمتدّ فيها خارج جسدها ، على الرغم من أن عالمها لا يقل محدودية عن عالمه ، الحياة في الكويت لا تهبك الكثير من الاتساع ، لكن بالنسبة لفتاةٍ مثلها ، تبتكرُ الأمكنة وتضخ التفاصيل وتخلق المغازي . . إنها قادرة على أن تصنع من حياتها شيئًا مثيرًا ، وفي أي مكان ، لو تركت في صحراء ستصنع غابة! هي الذاهبة في الأشياء حتى منتهاها ، إنها لا يمكن أن تكون مثلهُ أبدًا ، أن تشعر بالملل أو باللا معنى ، فهي ليست مستعدة لتقديم تضحية من هذا النوع . .

كيف مضت بها تلك السنوات؟ هل كانت عامرة بالعشّاق والمتولّهين؟ ولماذا قامت بهذه الدورة الهائلة لخمس سنوات لتعود إليه في النهاية ، هو الذي قرر إقصاءها عن الخارطة مؤخرًا فقط ، مؤخرًا فقط؟ ولكنه ظل مخلصا لها دونما رغبة بذلك ، حتى مع احتمالات الحب التي أتيحت له ، الوجوه الأنثوية الناعمة التي مرت بين أصابعه كدعوات عطرة ومناديل مطرزة وكل ما يحلم به من هباتِ الأنثى ،

إنها من ذلك الصنف من النساء الذي لا يمكن أن تحب بعده أبدًا ، وكأن لا شيء يوازي العمق والألم اللذين تهبهما له بعفوية ، إنها تأتي لتكون الأخيرة ، ومهما كانت المرات التي عشقت فيها من قبل ، تشعرك ببساطة بأنها الأولى .

قالت بأنها تحتاجه ، ما أروع ذلك! لماذا لم يشعر بروعته في حينه ، بقدر ما تمنى أن يضم جسده مثل قنفذ عملاق؟ لقد خسر / ربح المواجهة ، لا يدري بعد . .

اجتاحه إحساسٌ بأنه يريد أن يفعل شيئًا لأجلها ، إنها امرأة على أي حال ، تحتاج إلى كثيرٍ من الأمان ، تخلت عن غيابها وعنجهية سنوات ليخذلها ، لقد ضيعت وقتها ، لماذا تصرف على هذا النحو؟ بأي شيء يبرر خوفه أمام من تذرعت به للإحساس بالأمان؟ **جبان! جبان!** كرّر وهو يصرف بأسنانه ، لقد تركها! وكان بوسعه أن يمسك بيدها لو أراد . . ولكنه الماضي ، الماضي اللعين من يقتله؟ لا يفارقه لحظة ، وهي . . ما زال لا يفهمها ، ما زالت شيطانًا وملاكا وطفولة وحيوانات أليفة ومخالب ، أليس ممكنا أن ذلك اللقاء الغريب كان محض نزوة ، هل تنفذ مشروعًا شيطانيًا وتحاول استغلال شغفه بها؟ منذ ثلاث سنواتٍ وهو يراها في الكلية وتراه دون أن يجسرا على تبادل التحايا ، أو حتى التبسم على سبيل الصدقة ، على الرغم من أن والديهما أبناء عمومة ويحدث أن يراها في المناسبات ، وفي الصيفِ ، هناك في *مونتانا* حيث تورّط بها للمرة الأولى . .

إنه يذكرُ ما حدث . . لم يكن ليصدّق بأنها انجذبت إليه ، في بدايةِ . . تفتح البداية ، عندما بادرته باهتمامها ، هو الذي يغلف نفسه بالغموض المفتعل لمجرد أنه يملكُ صوتا حامضًا وأعين ترمش طوال الوقت ، أراد أن يصمت ، أن يغيب أو يتلاشى في مكانٍ ما يستطيع معه أن يتشرب حضورها دون أن تشعر به / دون هذه الرعدة الوقحة في أوصاله كلها عندما تلتقي عيونهما عن طريق الخطأ! ولم يخطر له أن غموضه يمكن أن يستفزها .

كان في المجموعة الكثير من الشباب اللافتين ، الساخرين الواثقين فارهي الوسامة ، محبي الضحك والغناء ، الصاخبين الممتلئين ، بدت له منسجمة معهم تمامًا ، تلائم كل واحدٍ منهم ، كان يجري في عقلهِ مقارناتٍ مضحكة ، في كل مرة يلصق صورتها مع صورة أحدهم ويقيّم المشهد بمرارة ليرى حد التوائم بين الاثنين ، لم يقاوم رغبته بأن يتخيلها إلى جانبه أيضًا ، ولكنه ما لبث أن هز رأسه ذعرًا ، لم يكن يجسر أبدًا ، لولا أنها كانت تسترقُ إليه النظر ليجتاحه الارتباك والنشوة ، كان يلتهمها من خلف النظارات الشمسية ، يجلسُ تحت مظلة باب المنزل ويراقبها ترتع بين ثلة من الشباب والفتيات ، يلعبون الكرة الطائرة ، أو كرة الريشة ، أو يثرثرون على أقل تقدير .

أخذ بها ، ولفرط ما شعر بأنها رائعة ولا شيء ينقصها ، كان يدفنُ رأسه في صدره ويصمت ، سيبدو أحمقَ - ولا شك - إذا فكر بالاقتراب ، ماذا يملك - هو في هزاله وخوائه - من أدوات للتأثير

عليها؟ لن يجعل من نفسه أضحوكة على الأقل ، لاسيما عندما بدا له أن الشباب في حالة تنافس خفي . . ولم يعلم لحظتها بأنه استخدم السياسة الأشدّ فتكًا وفاعلية ، سياسة اللا فعل . .

ما من قوة كانت لتمنعها من ثقب الغشاء الغبيّ الذي يفصل العالمين بينهما ، تتساءل عن هذا الشيء الذي سيتدفق منه ، خمر؟ عسلٌ؟ زلال؟ أم ماء آسن؟

. . ذلك اليوم

ركضت ولعبت بالكرةِ وخسرت وقهقهت وخرجت من الملعب وهي تنفخُ من التعب ، لمحته ، أقسمت بمكر بأنه يراقبها ، ليس ثمة أنثى لا تشعر بعيني رجل! حدست بأنه يراقبها من خلف العدسات المظلمة الغبية ، لم لا يقتربُ منها؟ أي نوع من الرجال هذا الذي يريدُ من المرأة أن تقوم بالخطوة الأولى؟ سأريه! كان قرارًا سريعًا : مسحت جبينها بكمّها ، نظرت إليه ، هتفت من مكانها ، بصوتها الفوضويّ : عندك ماي؟! تلطخ وجهه باحمرارٍ سافر ، هل تحسبُ ذلك انتصارًا يا تُرى؟ لم يرد ، لقد بوغت تمامًا .

هتفت به : هيه !

بدا صوته مضغوطًا وكأنه يخرج من بطنه : لحظة !

لم يخطر بباله أن تلك اللحظة ستكون مفصلا حاسمًا في حياته ، دخل المنزل على عجلٍ وعاد بكأس ماء ، وجدها تنتظره عند العتبة ، جالسة بأريحية ، وعندما خرجت أمّه من المنزل حيّتها

ببشاشة وتمنّت لها يومًا سعيدًا ، فكّر لحظتها بأنها - على عكسه - تفعل كل شيء بسهولة ، تناولت الكأس ، تلامست أصابعهما (هل قصد ذلك؟) ، شربت شيئا منه ثمّ سكبت ما تبقى في الكأس بيدها ، مسحت به وجهها المحمرّ ، وبقعة عرقٍ كبيرة تجثم على ظهرها وأسفل عنقها تبلل بلوزتها الزرقاء الباهتة ، بدت مثل ثمرة منداة ، بشرتها عذبة البياض المشبعة بحمرة خجولة ، عيناها الحاذقتان المشوقتان ، والشفاه وافرة الدسامة . . أعادت له الكأس ومضت دون أن تشكره ، كان حريصا على أن لا تفوته أي من طقوس شربها لدرجة أن عينه لم ترفّ ، وعندما رحلت . . كان يتأمّل بصمة شفتيها على الكأس وينساب في خواطر شبقة . .

٢

كأسٌ ثانية ، وكأسٌ ثالثة ، ورابعة ورائعة . . كأسٌ وشفاهٌ ، في كل يوم كأس وشفاه ، وبشرة حلوة ، وخدود متوردة ، وعطر يفككه مثل لغزٍ ، اللقاءات تطول لحظات ، دقائق ، ساعات . . صار بوسعه أن يقترب ، دون أن يبدو مفتعلاً .

يقبض على رأسه / كأن التفاصيل تهرب . .

يذكرُ كلامها مثل تعويذة ، الأحاديث التي لا تكاد تدور في فلك آخر سوى الدراسة والطقس ، يحفظها آمنة في رأسه ، يكرّس لها كل طاقات الذاكرة ، يتصفحها مثل ألبوم صور لشهر عسلٍ مزعوم ، الأحاديث التافهة التي تطرح لمجرد الحديث ، أكثر من كونها فعلاً إيجابيًا يثمر حراكا في اتجاه ما ، في اتجاه يكفل له تصاعدًا - ولو طفيفًا - في تلكم العلاقة ، على عتبة منزلهم الصيفيّ .

- أقول مشعل؟

- هه؟

- شلون اختبارات قبول الجامعة؟

دفقٌ من الأدرينالين يقذفُ في دمه ، يحمرّ بشكلٍ مخجل :

- أنا . . أنا ما قدّمت ليلحين !

- شلون؟

- أنا . . أنا . . توني خلصت سنة ثالثة !

- يعني إنت في مثل عمري !!

لم يفهم سبب اهتمامها بخوض حواراتٍ معه ، حوارات تطوّرت إلى لقاءات مطولة على دكة منزله ، ورحلات إلى «السوبر ماركت» ، والذهاب للعب «البولنغ» والتزلج على الجليد وتسلق الجبال والتقاذف بكرات الثلج ، وأشياء ما كان أيهما يحلم بإمكانيتها في الوطن ، كانت أمامه فرص كثيرة لخلق حالة حب محمومة ، كأن يحتكرها في زاوية ويهمس بها بأشواقه ، أو يخاصرها عندما تسير إلى جواره ، ربما كان بوسعهِ أن يأخذها إلى مكانٍ شاعري ما . . بحيرة فاتنة الزرقة أو مقهى خاص بالعشاق ، وأن يصرّح لها بمشاعره ، ولكن الأمور لم تجرِ على هذا النحو ، الطهرانية المفتعلة كانت سيدة الموقف ، ليس امتثالا لعادات الوطن وتعاليم الدين ، بل هو الخوف ، الخوف دائمًا ، الخوف أبدًا ، الخوف وحده .

يعرفُ على أقصى تقدير بأنها تريد قضاء بعض الوقتِ معه ، ولكن . . ألا تتصرف هي مع بقية أقرانهِ بالبساطة ذاتها ، إنها لا تفرق في طريقة حديثها بين رجلٍ وامرأة أصلاً! هذا ما يثيرُ عجبه ، أن شيئًا

خاصًا لم يحدث بينهما ، على الرغم من أن بوسعه دائمًا أن يشعر - أو يتنبأ - بخصوصيته ، عصر رأسه بيده يبحث عن تفاصيل تمنحه امتيازًا ما ، يذكرُ أنها في تلك اللعبة في الملاهي «السينما المتحرّكة» جلست بجانبهِ ، وأنها عندما كانت العربة تهتزّ أمام الشاشة وقعت عليه مرارًا ، وضحكا حتى السّكر ، وعندما انتهى العرض غادرَ والفرح يفور في عينيه ، ولكنها كانت تتصرف بطبيعية وكأن شيئًا لم يكن . . يذكر أنهما كانا يطلبان الوجبات ذاتها من المقهى المجاور ، وأنها عندما كانت تسقط في صالة التزلج ، كان يمدّ يده لينتشلها فتستجيب ، ولكنها كانت ستستجيب لغيره أيضا من أجل أن تنهض! يذكرُ أيضًا أنها كانت تشاركه «البطاطا المقلية» و«النفيش» و«الدونت» من طبقه الخاص ، تفعل ذلك بعفوية وكأنه صحنها هي ، تأكلُ وتتابع الثرثرة غير الجدية ، حسنا . لقد خصّته بأشياء معينة ، ولكنه على الضفة الأخرى يتذكر أشياء مزعجة ، يتذكر أنه يتورّط بكم لا يحصى من الـ «تأ تأ تأ تأ» عندما يرغب بالحديث ، وأنه يلفظ اسمها أحيانًا (شعاد) دون أن يقصد ، وأنه عندما كان أحد الفتيان يسخر منه لم يكن يستطيع أن يرد ، يذكر أنه تعرق مرة على نحو مفرط وفاحت في الأنحاء رائحة فاضحة ، ويذكر أيضا أنه كان صعبًا عليهِ جدًا أن يخبرها بأمرٍ تافه وبسيط . . أن يصنع حوارًا :

- أ أ . . أبوي . . يقولي إإ . . إخذ شهادتـ . . ـك . . من أمريكا أحسن ، بس أنا متردد شوي . . مو . . مو مرتاح !

- صج إن ما عندك سالفة !

- لـ . . ليش؟

- الدراسة برا حياة ثانية ، حرية! استقلالية! اكتشاف! خبرة! تخصصات نادرة وجامعات معتبرة و . . كل شيء ! آآآه . . يا حظك !

و بعد أن صمتت لبرهة قالت وهي تقطب : أبوي مستحيل يخليني أسافر . .

- يخاف عليك .

- ما أدري .

- أنا متأكد .

بدت تعيسة وهي تضم وجهها بين كفيها وتزفر ، شعر بالانتصار ، لا شكّ وأنها ستعجب به أكثر إذا درس في الخارج ، وقرر أن ينطلق في هذا الاتجاه ، كان قرارًا سريعًا !

٣

شهر واحدٌ فقط ، واحد فقط! شهرٌ في مدينة لعينة اسمها «مونتانا» تتربع على قمم سويسرا ، كيف يمكن أن يفرض حضوره في حياته بهذه القوة؟ نسائل الحب وكأنه يواكب أمزجة المنطق! تكفي أحيانًا لحظةٌ واحدة للتورط في حالة عشقٍ متناهية ، وقد تمضي سنون على رجلٍ وامرأة تحت سقف واحد دون أن يقعا في الحب ، من ذا الذي يفسر ما يقذفه القدرُ في وجوهنا من مصائر؟ أو يشرح لماذا تجري الأمور على هذه الشاكلة ، غريبة . . كالمصادفات التي لا يؤمن بها ، فكل شيء يمضي في اتجاه محدد سلفًا ، نحن نبحث عن مصائرنا التي تريدنا ، وليس التي نريدها ، ربما نعثر على مصائرنا التي تريدنا أثناء بحثنا عن مصائرنا التي نريدها ، ثم تضخّ فينا شحنةٌ سماوية غريبة بأن هذا هو أفضل ما يمكن أن يحدث لنا . . ترى ، كم من حالات أشباه حب ، احتمالات حبٍ هائلة ، يضيّعها الناس لمجرد أنها تقعُ خارج جغرافيا عقولهم ، هؤلاء العقلانيون! لماذا لا يذعنون

لجبروت لحظة الافتتان عوضًا عن أن يوصدوا أبوابهم بقفل صدئ لأن هذا «غـيــر ممكـن ، لم يحـــدث شـيء ، تلامسٌ طفـيـف في الأعين وحسب!» . .

يعض على يده . .

انتهت العطلة دون أن يعرف عنها ما يستحق الذكر ، يعرف بأنها طموحة ، ستدرسُ الطب ، الشيء المنطقي الوحيد لتفعله من تتخرج من الثانوية بامتياز ، إنها معادلة محسومة النتائج بالنسبة للمنطق الرائج في الكويت ، ألف يؤدي إلى باء ، ألف . . هي ذكية وطموحة ، باء . . هي تستحق أن تنتسب إلى أفضل الكليات ، ماذا أيضًا؟ خارج نطاق الدراسة؟ لا شيء يذكر سوى أنها تحبّ الطبيعة ، عندما كانت تضع كفها على غصن شجرة وتهمس «hi» ، أو عندما تتسمر لساعة كاملة أمام دودة قز ، كانت تفعل أشياء غريبة وتتحدث عن تناسخ الأرواح ، هذه مشكلة حقيقية! إنها تقرأ وتتسمّر أمام الديدان ، الأنثى الوحيدة التي عرفها والتي تحبّ الديدان ، ماذا يعرفُ عنها أيضًا؟ لا ترتدي إلا بنطلونات الجينز ، ويستحسن أن لا تقترب منها عندما تجدها منكبّة على دفترها الأخضر الصغير ، كما لو أنها انفصلت عن الحقائق والمكان والوقتِ والأسماء ، كما لو أنها تحلق في واقع آخر ، لو ناديتها ، لو صرخت في أذنها فلن تردّ ، قد تصفعك وتعاودُ الكتابة دون أن تشعر ، يتساءل ماذا تكتب؟ مذكّرات؟ شعر؟ ترى . . لو أنه حفظ إحدى قصائد نزار قباني ، هل ستعجبُ به أكثر؟ إنه لا يعرفُ

شاعرًا آخر أصلاً ، راح يتأملها ، تميل بجذعها النحيل على الدفتر ، تثني ساقيها دائمًا وتضع الدفتر الصغير على فخذيها ، عندما تكتب تبدو كطفلٍ يتعلم الإمساك بالقلم للمرة الأولى . . على الرغم من أنها تكتب طوال الوقت ، تبدو كدودةٍ ملتفةٍ بعضها على بعض ، على عالم تنسجه ، ولكنه ليس حريرًا بالضرورة ، هكذا يحدسُ من تلك التقطيبة الغريبة ، ترفع رأسها فجأة ، تجد قميصها قد تجعّد في منطقة البطن ، ترفع خصل شعرها الفوضويّ ، تنظر إلى السماء ، السماء دائمًا! تنفخُ . . تتنفس بسرعة غريبة ، تبدأ عينها بالبحث ، هل تبحثُ عنه؟ تصافحُ وجهه ، تبتسم . . ما كان أجمل ذلك !

يغمضُ . . يحدّق في الداخل . .

عندما تحزن يعرف الجميع بأنها حزينة ، يظهر ذلك جليًا في طريقتها في المشي ، تصبح أقل اتساقًا ، كمن يتعرض لصدماتٍ متتابعة من جدران غير مرئية ، تتقلص خطوتها وتعوجّ قدمها ويستحيل مشيها إلى عرج ، يذكر أنها كانت تغادر منزلها مستاءةً أحيانًا ، كان يبذلُ كل طاقته لسؤالها عن السبب ، ولكنها لم تكن تخبره ، كانت تطلب منه - ببساطة - أن يدعوها للأكل أو يشتري لها شيئًا ، ميدالية دب أو بطة ، عندما تأكلُ تصبح أقل تعاسة ، لم تمنحه يومًا شرف الشكوى ، إلا مرةً واحدة ، يذكرها ويحبها ! يوم تلفظت بأشياء مريعة ، لم يعرفُ من تقصد في أول الأمر ، ولكنه فطن لاحقًا بأنها تشير إلى زوجة أبيها ، تبدأ في ترتيلِ وجعها : *أراها حمراء*

الشعر عندما أنام ، شعرٌ أحمر كالنار ، على الرغم من أن شعرها أسود جدًا ، أسود كقلبي ! لم يملكُ لحظتها ما يقوله ، الغريبُ أنها كانت تقصّ ذلك وهي تنتف ساق عشبةٍ بيديها ، الموضوع بدا عاديًا ، أو هكذا حاولت أن تظهرهُ ، ولكن صوتها اكتسب نوعا مهيبا من الثقل .

- غيرت أثاث بيتنا ، متخيل؟ غيرت كل شي وبعدين سألتني هاه حلو؟!

لم يجد شيئًا يقوله ، تمنى لو يستطيع احتضانها دون أن يكون الأمر كسرًا لقداسة العادات وشريعة السماء ، ولكنه - حتى لو وضع كل هذا جانبًا - لن يتأكد أبدًا من أنها تريد حضنه ، ماذا لو صفعت خده وسألته وهي تنفخ كتنين (كيف تجرؤ يا قليل الذوق !) على أي حال ، كان أمامه في الحديقة رجلٌ وامرأة يتعانقان ، وفكّر بأنه منفعلٌ لا أكثر .

تأملتهُ طويلاً بعينٍ باردة ، باردة على نحوٍ مخيف ، حدس بأنها ندمت على إطلاعه على كل هذه الأشياء ، هو الذي لا يستطيع حتى التعبير عن موقفٍ إزاء ما تقوله ، لا يستطيع أكثر من التفكير باحتضانها ثم الاعتراف بسخف الفكرة :

- شفيك؟

- مافيني شي .

- قول شفيك ، خرّعتك؟

- لا .

- عينيك فـ عيني؟

هذا ما تفعله عندما تشك في كذبه ، تجعله ينظر في عينيها ، تلمع عينه بالخوفِ ، يهرب البؤبؤ المظلم إلى اليسار ، تقهقه كالطاغية :

- انس الموضوع مشعل .

- شفيك؟

- نصيحة ، إذا قررت تكذب . . لا تطالع يسار ، طالع يمين !

- ليش؟

- لأنها مراكز الإبداع في الدماغ ، إنت فنان!

ضحكت ، ابتسم كالأبله ، وكانت المرة الأخيرة التي سمحت له فيها بالاقترابِ . .

ذلك المساءِ ، قبل عودتها إلى الكويت ، بعد شوط كرة اليد ، كانا جالسيْن على دكة منزلهِ ، هي تعبّ الماء بشراهةٍ - وإن شئنا الدقة - بشيء من التشنّج ، وكأنها تشعر بانزعاج من عبثية هذا الطقس اليومي ، إنها تجلس على الدكة ما زالت ، ليست في الداخلِ ولا في الخارج . .

- ليش ما تلعب معانا؟

لم يخبرها :

- أريد أن أعيش افتتاني بكِ عن مسافة كافية لترتيلِ تفاصيلكِ . .

بل قال :

- ما أحب كرة اليد .

- شتحب عيل؟

لم يقل :

- أحبكِ أنتِ !

بل قال :

- كرة القدم .

تناوره :

- ما أشوف بينك وبين عيال عمامك علاقة .

لم يخبرها :

- أنتِ سرقتني .

بل قال :

- بالعكس ! احنا أصدقاء . .

صعرت خدها بسخرية وهزت رأسها على نحوٍ لم يفهمه ، الحوار الذي يبدو مبتذلاً وسطحيًا يقع في نفسها وقعًا أكثر عمقًا .

- وأخوك؟

- أي واحد؟

- شعلان ، شعلان عكسك بالضبط ، ما يفوت فرصة لعب . .

لحظتها بدأ يشمّ رائحة ملام ، وكأنها محبطةً لأنها أولته اهتمامًا ، أم تراها تشير لحقيقة يعرفها ويتجاهلها بصعوبة ، أن شقيقه الذي يكبره بعامين يبدو أيضًا مفتونًا بها ، وأكثر مبادرة؟

- أنا وشعلان علاقتنا حلوة .

- زين .

اتكأت بظهرها على جدارِ منزلهِ ، ارتسمت على محياها ابتسامة غريبة ، سألتهُ فجأة :

- أنا غبية؟

- هه؟!!

قالت ذلك وهي تقتربُ منه خطوتين ، تحدق فيه بنظراتٍ موجوعة ومتأججة ، تشير له بسواد عينها يمينًا . .

- جاوب !

- لا سعاد ، لا! ما أحس إنك . . غبية!

- شنو تحس عيل؟

- آآ

- ولا ما تحس؟!

ضحكت بوقاحة ، تصفد جسدهُ بالعرق ، شعر بلزوجة العرق في كل جسده ، التصق قميصه بظهره :

- باكر بنرجع الديرة .

أخفى جزعه بردٍ ساذج :

- صحيح؟

- يس .

- متى؟

- الصبح .

- بقعد مبكر عشان أسلم عليك .

- مافي داعي .

بدت غاضبة ، شعر بأنها تكرهه ، أو على وشك .

- أبي أسلم عليك ، الساعة كم بتمشون؟

- شالمحصلة التي طلعت فيها من هالعطلةِ مشعل؟

- المحصلة؟

- ايه !

ما معنى هذه الأشياء التي تقولها؟

- شنو يعني محصّلة؟

- ما تعلمت شي ، حلمت بشي . . حبيت! حبيت شي؟

- أوه ، أكيد سعاد ، ما فهمتك مساع ، ألحين فهمتك ، مونتانا حلوة حيل . . هذي هي المحصلة!

- و . .

- وشنو؟

- بس؟

- آه . . آ . .

ابتسمت بوجع ، ورأى في تلك الابتسامة رايات بيضاء مرفوعة ، ودون أن تودعه ولته ظهرها ومضت ، عندما حاول سؤالها عن موعد الرحلة لم تجب ، استمرت تمشي مثل آلة معطوبة ، وخيل إليه أنها في

مشيها ذاك كانت تنتزع أشياء من قلبها وترمي بها في الشارع ، وصلت منزلها وأقفلت الباب دونه . .

عندما استيقظ في اليوم التالي كانت قد رحلتْ ، باكرا جدًا ، رحلت مع الفجر .

الفصل الثالث

١

بدا متأثرًا في رسالته التي أرسلها بالإيميل قبيل سفره إلى أمريكا ، مليئة بالأخطاء ومترعة بالغباء ، معبأة بقلقٍ مشحون ، يستوطن الصدر ويقبعُ هناك .

«مرحبًا سعاد ، شلونك؟

من زمان ما شفتك ، أقصد على النت ، شخبارك؟

تذكرين لما كلمتيني في مونتانا عن الدراسة برا البلد؟ اقتنعت بكلامك سعاد ، السفر أحسن لي (**لماذا لا تخبرها بأنك تفعل ذلك من أجلها؟**) *بس حسافة ما راح أكون موجود في الكويت* (**عجيب !**) *بس عموما براسلك من هناك ، باخذ معاي «lab top» ، وأقولك عن كل شي يصير لي ، إنتي بعد سعاد قولي لي عن أخبارك وعن كليتك ، حلو إن نعرف أخبار بعضنا ،* (**هل هذا أقصى ما**

تستطيع قوله؟) أنا أحاتي إني برا الكويت ، بس احنا ما تشاوفنا إلا مرتين من بعد مونتانا أصلا ، عدل؟ (هل هذا تصريحٌ أم هلوسة؟) لا تنسين تراسليني ، أحب أعرف أخبارك (أخبرها أنك ستشتاقها وحسب !) ، وبشوفك ع المسنجر طبعًا ، انتبهي لنفسكِ سعاد ، أوكيه؟ دزي لي إيميل لما تقرين رسالتي (هل يكرّرُ ذلك للمرة الثالثة؟)

مشعل»

كان هذا **أقصى ما يستطيع قوله** ، أقصى ما يستطيع قوله! بعد مضيّ السنة من المراسلات الملتهبة من ناحيته ، المقتضبة من صوبها ، امتدت بينهما حتى بلغا مشارف التخرج وآن أن يسافر ، ليس لأجل الشهادة (**يكفي هذا الدّجل !**) بل لأجل أن تُعجب به هيَ .

في هكذا أوقاتٍ تصبح الحياة فاتنة وبذيئة ، تشرّع كل أبوابها وتهبك وحدك - في حيرتك وقلة حيلتك - جحيم الاختيار ، هذا المفصل البرزخي الحساس الذي سيتراكم عليه نتاجُ كل ما تفعل لاحقًا ، كل شيءٍ يتوقف على الاتجاه الذي تديرُ إليه الدفة الآن ، كل شيء هو الآن ، وهنا ، هذه البساطة المرعبة التي تجري عليها أمور بهذه الجسامة تشعره بأن ثمة خطأ ، لماذا يبدو كل شيء عاديًا على الرغم من أنه يتمخض عن . . مصيرٍ؟! ردد فقط : كل شيءٍ هو الآن وهنا ، كل ما سيأتي هو ظلالٌ للآن . . تضع ورقةً وقلمًا وتبدأ في سطر أولوياتكَ في الحياة : سعاد ، سعاد ، سعاد ! لا شيءَ غيرها ، فكّر

لوهلةٍ ، لو لم توجد سعاد قط ، أين كنت لتمضي؟ لم يستطع حتى أن يتخيلَ الموقف ، سعاد غير موجودة؟ إنه لا يجرؤ على النظر في هكذا احتمال ، لا يجرؤ على الغطسِ فيه ليكتشف بأن هذا ليس ما يريدهُ فعلاً ، لكن ذلك الضيق الرمادي المحيطُ به هو ما لم يستطع تفسيره ، وهاله أن يفكر بأن وجوده مرهون بوجودها ، لو غابت هي عن الخارطة ، هل كانت حياته لتمضي في طريق أكثر عبثية وفوضى أم أكثر منهجية وموضوعية؟ هل كان - على سبيل المثال - ليقدم على السفر لأجل دراسة تخصص يكرهه من أجل امرأة يحبها؟ لن يتوقف طويلا عند تلك الأسئلة ، فالحب يأتي بالأجوبة ، الأجوبة عديمة الضمير ، الحب يبرر كل شيء ويحدد مساراتك سلفًا وأنت تذعن بكل غباء وتسمي الأمر شهادة!

إنها مشكلته الأولى ، أن يبدو معتوهًا في كل ما يقوله ، شفافًا ولا نهائيًا في كل ما لا يقوله ، كان بوسعه دائمًا أن يقول كل شيء على أروع ما يمكن دون أن يتلفظ بحرف ، ولكنه بمجرد أن يتكلم يصبحُ أخرقَ ، لعلها فكّرت هكذا . . مسمّرة أمام الرسالة كما لو أنها نص تصعب قراءته ، لعلها شعرت بأن عليها أن تبذل جهدًا مضاعفًا لتستنبط الأشياء التي يريد قولها ولم . . لم تكلف نفسها حتى عناء الرّد على رسائله ، ولعلها حذفتها على الفور ، ولماذا ستبقي على شيءٍ بهذا الغباء ودون أي خصوصية أو تبجيل لها؟ وهو . . ما فتئ يتذكر ما كتبه بإحساسٍ طاغٍ بالخجل . . دودةٌ بليدة ! هكذا فكر وهو يبتسمُ ،

تحت اللحاف متكورًا : عندما قرّر أن يهجر طور الدودة ويقتني . . أجنحة أو ما شابه تركتهُ ، لم يكن كافيًا ، لم يعجبها! اندفع نحوها بهوس مضحك ، كل تلك الرسائل ، الرسائل! تراها كانت تقضي الليالي في قراءتها وتتساءل : لماذا طالما يهمه أن يراسلني إلى هذا الحد المَرَضيّ . . لا يخبرني عن شيء من مشاعره؟ أي ممل ، هذا الفتى الثرثار الذي بوسعه أن يكتب خمس رسائل في اليوم دون أن يدس - ولو بشكلٍ مبطن - كلمة شغف ، أو - بحقّ الله ! - كلمة حب؟!

حاول أن يتذكر ما كتبه في الرسائل اللاحقة ، لا يذكر شيئا ، قام بحذفها من البريد كلها يوم صرخت فيه (في رسالة !) «لا تراسلني بعد اليوم !» ، لم يكن صعبًا عليها أن تلقي به خارج جغرافيا حياتها ، إنها دائما قادرة على شيء كهذا ، لو شعرت في يوم بجزء من جسدها يزعجها لاستلّت سكينا وبترته ورمته للكلاب ، ألم تفعل ذلك مرة؟ عندما تناولت سكين مطبخٍ وقصت شعرها ثم رمتهُ على البلاط الأبيض للحمّام مفتونةً بالمشهدِ ، مشعل يعرفُ الحادثة وما زالت تقتله رعبًا . . شعر بنصلٍ حاد ينغرسُ في أعماقه وهو يقرأ تلك الأسطر في بريده ، مكتوبة بخط أحمر بذيء ، لماذا؟

لم تكن لترد ، حتى عندما كان يكيل بالاعتذاراتِ على جرائمه التي لا يعرف أسماءها بعد ، وذنوبه التي لا يتذكرها ، لم تكن لترد ، ولكنه ما فتئ يعتذر ، في كل يوم يعتذر ويعتذر . . عالقًا في حلقومِ غربةٍ مضاعفة ، بعد أشهر قضاها في كاليفورنيا ، وحيدًا بائسًا ومورقًا بالخسائرِ .

يتأوّه ، يحكّ جبينه ، يغطي وجهه بيده . .

إنه لا يتذكّرُ الكثير من أحداث تلك الحقبة لفرط ما كان مغيّبًا أمام ذاكرةٍ تتسرب ، الذاكرة جثة تتفسخ أعضاؤها ، تشرّع خواءها فاحشًا وموحشًا ، كالمدينة التي لم يتصالح معها أبدًا ، علاقته بها لا تتجاوز ثوانيَ يطلّ فيها من النافذة في الصباح ، من الدور السابع والعشرين (يكرهُ الأماكن المرتفعة!) ليرى الصخب والزحام والتدافع الهمجيّ في الأسفل ، يرى الحياةَ في منتهى الحركة واللا معنى دون أن تشعره بالقوة أو بالتدفق : هل ضيعت وقتي؟ لم يكن - بعدُ - يملكُ جوابًا لهكذا أسئلة ، أو ربما كان خوفًا من مواجهة الحقائق ، ولكنه مع كل خطوةٍ يخطوها يشعرُ بأذنه تستطيلُ ، تستحيلُ أذن حمار ، يشعرُ بذلك بقوة لدرجة أنه يبدأُ في الركض مذعورًا من أن يراه أحد ، يختبئ في أحد الأزقة ويتحسس أذنيهِ ، ثم ما يلبثُ أن يركل أي شيء يعترضه ، يحمرّ وينفخ وينخر ويضرب الجدار بقبضته ويبكي : حمار! حمار! في كاليفورنيا . . لا أحد يلتفت عندما يبكي أحد ، لا أحد يفهم ما تعنيه كلمة حمار .

في إحدى نوبات استطالة أذنيهِ ، يوم احتضن جسده في الزقاق الهزيلِ وبكى ، كاد يغمى عليه من الخوف عندما برز أمامه - لا يدري من أين! - ثلاثة شبانٍ أمريكيون يحملون سكاكين ومستعدون للسطو عليه ، ألقى بكل ما في جيبه تحت أقدامهم وشرعَ في الركض وهو يستصرخ بخوف «No! no! no!» ، تناهت إليه أصوات ضحك ، قبض

على أذنيـهِ واسـتـمـر في الركض حـتى وصل إلى شـقـتـه ، وأغـمي إليـــه . .

الصور المرعبة تتدافع في أحلامه مصحوبة بالضحكات والرطانة ومس من شياطين الحبيبة ، وفي كل مرة يتذكر الطريقة المضحكة التي ركض فيها ،كان يتذكر خوفه أمامها ومنها / أنها أفلتت كما تنزلق الصابونة من يده ، ما كان أبسط رحيلها! لو أنّه قام بمحاولة جريئة قليلاً ، ألن يكون إحساسه بالندم أقل؟

كان ناقمًا ، ولكنه لم يجد ما يصبّ عليه نقمه ، ولا حتى هيَ ، لا يشعر بأنها خذلته ولا بأنها تخلت عنه ولا بأنها مجرد لعوب ، عوضًا عن ذلك تحنّط كالمجنونِ أمام شاشة الكمبيوتر ، في كل دقيقة ، كل لحظة ، ينتظر أن يبزغ اسمها في المسنجر ، وعلى الرغم من أنه كان متشائمًا إلا أن تشاؤمه وحده كان يبث فيه الأمل ، إحساسه المتصل بالألم يحول دون أن يصرف تفكيرهُ عن الأمر ، وبالتالي يمنحه في كل دقيقة احتمالات مضيئة للعلاقة المرتبكة ، الساعات المتطاولة وحدةً وغربةً وأيقونات صفراء تنقضي على نحوٍ يدعو للرثاء ، أم كلثوم تغني **وصفوا لي الصبر** ، دردشة رخيصة مع عابرين لا وجوه لهم ولا أسماء ثابتة ،*أسير الحزن* ، *دمعة شوق* ، *زائر الليل* ، أسماء تثيرُ الغثيان ، مواقع تبدّل جلودها باطراد ، لا جغرافيا ولا حدود ولا زمن ، وبالتالي لا حنين ، مجرد سديم جهنّمي ، يقول لنفسه بأنه أصبح مدمن انترنت ، ولكنه يعرفُ في سريرته أنه ليس كذلك ، إنه يائسٌ

وحسب ، وتلك الشاشة البليدة المشتعلةُ دومًا ، وحدها تقتل الفراغ بالفراغ .

«مرحبًا سعاد ، شلونك؟

إنتي زعلانة علي سعاد؟

أنا آسف ، صدقيني ما أقصد أزعلك . .

كيف أمورك؟ كيف الاختبارات؟!»

رسائله تجيء على هذه الشاكلة وأشدّ يأسًا ، في لحظاتِ ألم مُسكرة كان يبدأ في الكتابة عن تفاصيل حياته ، أتفه تفاصيل حياته ، لمجرد أنه يريد استعادة الإحساس بها قربه ، أو ربما يريد أن يقنع نفسه بأن شيئا لم يتغير .

«اليوم رحت السوبر ماركت شريت معجون حلاقة ، الجو بارد ، أخاف أمرض ، يقولون إن درجة الحرارة وصلت ٤٨ في الكويت ! قدّمتِ اختبار القيادة؟ متأكد إنك بتنجحين ، أي سيارةٍ تبين؟ ودي أرجع الكويت وأشتري سيارة . .

لم يكن ليتزحزح من مكانه أمام شاشة الكمبيوتر ، يتصرف وكأنها ستبزغ أمامه في كل لحظة ، كان في أحيانٍ كثيرة يتخيّل أنه يسمع صوتًا ، صوت دخولها المسنجر ، الرنة المبهجة!! كان يسمعها لفرط ما يحلمُ بها ، يسمعها في السوق أو في الجامعة فيسرع إلى أقرب مقهى انترنت أو مختبر كمبيوتر ليتفحص بريده ، يسمعها أحيانا في نومه فينهض كالملدوغ ويشغل جهازه وينتظر ، ينتظر دون أن

يشعر بالحماقة أو اليأس ، ينتظر بخشوع وكأن هذا هو الشيء الوحيد الصحيح في حياته ، الصحيح في العالمِ بأسره ، حتى شعلان يئسَ من مساعدته ، محاولاته لانتزاعه إلى عالم آخر ، التسكع معه في كاليفورنيا الهائلة ، كل هذه المحاولات كانت إمّا بائسة وفاشلة ، حتى عندما يرضخ لرغبة أخيه - خلال زياراته له - بإطفاء الجهاز والتنزه معه ، كان بعد خروجه بنصف ساعة ينتابه دوارٌ حاد ، تنهار قدماهُ ويسقطُ فجأة ، في عرضِ الشارعِ - يسقطُ مغشيا عليه ويحلمُ بها .

٢

يرتعـد ، تغـرورق عـيناهُ ، جـيـدٌ أن الشـاشـة لا تفـضح هلعـه ، يستطيع دائمًا أن يبدو رابط الجأش بفضل هذه الأيقونات ، أن يضع لهـا وجـهًـا ضـاحكًا عندمـا يكون في أسـوأ نوبات بكائه ، يجب أن يتصرّف على نحوٍ هادئ وبسيط ، أن يحييها كما لو أنه يراها كل يوم ، أن لا يعاتبـها لأنها قـد تجعله يدفع ثمن ذلك غيابا آخر ، شيء لن يصبـر عليه أكثر ، لقد عـادت الآن ، وكم يلائمـها أن تظهر عندما لا تتوقـعهـا ، وتغيب عندمـا تنتظرها ، فلينفـذ الخطة التي أرادها دائمًا : سـيطفـئ كـبرياءه والسـخط المتـفـجـر من داخله لبـعض الوقت ، لا يهم . . لا يهم! فقد عادت! هذه هي الخطة! (يفكّر الآن بأنها مضحكة بمأساويـة) .

Mish3al Says:

شلونك سعاد؟

كلّ السكوت كلامٌ بذيء :Says [(١)]

زفت !

كان مشتاقًا ، كان سعيدًا ، يردد (ما رأيتُ بؤسًا قط!) ، وينوي - بعد أن يذوّب ما يكفي من الجليد القديم - أن يخبرها كم اشتاق ، ولكنها بارعة في قلب الطاولات ، تجعل نفسها دائمًا مركز الحدث ، بتلك الأنا المغرورة بالغة التضخم .

هي - بعد كل الذي قاساه - تجيء لتخبره بأنها ليست على ما يُرام ! وتساءل بمرارة : لماذا عادت؟ لعلها سئمة وفارغة لدرجة جعلتها تتنازل وتزيل الحظر عن عنوانه الالكتروني ، لأنه في النهاية وسيلة لتضييع الوقت! انتابته نزلة إحباطٍ نتنة ، ولكنه في الحينِ ذاته فكر : ألا يمنحه ذلك امتيازًا ما ، أنها تعود إليه عندما تكون في حالها الأسوأ والأكثر صِدقًا ، ألا يعني ذلك - على أقل تقدير - أنها تؤمن به؟

Mish3al Says:

سلامات شفيك؟

كلّ السكوت كلامٌ بذيء :Says

ودي أموت !

Mish3al Says:

شهالكلام !!

---

(١) مقطع من قصيدة لسميح القاسم ، كانت تستخدمه كاسم مستعار .

Says: كلّ السكوت كلامٌ بذيء

Don't worry

Mish3al Says:

شلون ما أهتم؟

Says: كلّ السكوت كلامٌ بذيء

ليش تهتم؟

هل جاءت بخبث لكي تغتصب منه اعترافا بمشاعر من نحوٍ خاص؟ وهل يستطيع الاعتراف بذلك؟ شعر بقلبه يكاد يفر من صدره . . ازدرد ريقه و . .

Mish3al Says:

أأ أكيد أمركِ يهمني يا سعاد ، قولي لي شفيك ، أقدر أساعد؟

Says: كلّ السكوت كلامٌ بذيء

يمكن الموت رحمة؟

Mish3al Says:

تعوّذي من ابليس سعاد ، إنتي بخير ونعمة .

Says: كلّ السكوت كلامٌ بذيء

تدري إنك تتكلم مثل العجايز؟

Mish3al Says:

العجايز هم إلي يفكرون بالموت سعاد ، أنا إنسان متفائل و(بلع ريقه قبل أن يكتبها) سعيد . .

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

صحيح؟

إنه متمالكٌ لأعصابه وكأنه أمام وجعها الفجائي وغير المسبّب أصبح فجأة سعيدًا لمجرد كونه يتنفس، وأصبحت الحياةُ - بكل الكوابيس والآذان الطويلة - جميلة لذاتها .

Mish3al Says:

المهم شفيك؟

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

أكره كلّيتي .

شعر بدوره بالخيبة ، هل هذا هو كل ما في الأمر؟ الكلية؟ هل بوسعها حقًا أن تكفر بالحياة كلها لأنها لا تحب الكلية؟ تحبط لدرجة أنها تنسى قرارها بأن لا تراه ثانيةً وتعود لتلقي في وجهه مشاعرها المتقززة من العالم بسبب الكلية؟ هل كان يتمنى سببًا أكثر دويًا ، مثلاً أبي ضربني ، أشتاق لأمي ، طردت من المنزل ، هل كان يريدُ لها أذى أكبر ، لكي يشعر بأهميته على نحوٍ أكبر؟! ولكن القضية ببساطة هي . . الكلّية !

Mish3al Says:

بس . . إنتي طول عمرك ودك تدرسين طب .

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

كله كذب مشعل ، كله كذب . . فاهمني؟

Mish3al Says:

لا

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

كالعادة !

إنها تهينه مرة أخرى وبشكل صريح ، فكر على نحوٍ سريع بأن من العبث أن يثور الآن ، هذا الدور لا يلائمه أبدًا ، ربما كل ما يستطيع فعله أن يغير نظرتها عنه ، أن يتذاكى ، إنه الطريق الأسلم للانتصار دون أن يفلت الموقف .

Mish3al Says:

أريح لك لو أخليك بروحك؟

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

آسفة .

كان على حق ، إنها تحتاجه .. تحتاجه بشكل فاحش ، لطالما احتاجت إليه ! (يبتسم)

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

مابي أدرس طب .

Mish3al Says:

شنو تبين عيل؟

كلّ السكوت كلامٌ بذيء Says:

أبي أموت ، الموت حلو

Mish3al Says:

أنت متشائمة وايد سعاد .

كلّ السكوت كلامٌ بذيء **Says:**

أوكيه أنا متشائمة ، بس إنت ما تحس بشي؟!

ألقت بسؤالها في وجهه ثمّ انطفأت ، توقع أن الأمر انفصال عادي في الاتصال ، ولكنها لم تعد . .

عرف أنه عاد إلى قائمة الحظر مرة أخرى .

٣

الصهيل ، الذوبان ، الحمى والسهر والهلوسة والبكاء الفجّ في طرقات كاليفورنيا ، كل هذا ، ثم تتهمه بغياب المشاعر وتغيبُ في الغياب؟ شعرَ - بدايةً - بكثيرٍ من الغضب ، بأنه لن يحتمل إهانةً أخرى ولم يكتب لها أي رسائل لأيام ، ولكنه سرعان ما تورّط بالحنين ، وتساءل إن كانت ستعود ، ومتى؟

لم تظهر منذ ذلك اليوم ، ولكن أخبارها كانت تصله من خلال الأقارب ، عرف بأنها انصرفت لدراسة إدارة الأعمال ، خيارٌ غير متوقع ، لا يدري على أي أساسٍ انعطفت بهذا الاتجاه ، جعله الخبر يشعر بكثيرٍ من الاكتئاب ، بدايةً لأنه توقع أن تخبره بالأمرِ هي كونها أشركته في أزمة الاختيار لديها ، وكونه أبدى اهتمامًا خاصًا بالأمر ، ثمّ لأن كل تخميناته حول ما ستدرسه خابت ، شعر بأنه لن يفهمها يومًا ، لن يتمكن أبدًا من التنبؤ بما تريده ، إنها كومة من المفاجآت الجالبة للشك ، الشك في كل ما قالته له يومًا ، ما يحفظه عن ظهر

قلبٍ كوصايا الأنبياء، امرأةٌ من ريح، كيف بوسعه أن يشعر بالأمانِ معها، هي التي تستطيع في كل حينٍ أن تكون شخصًا آخر خلاف الصورة المتكونة في ذهنه.

تضاعف إحساسه بغربته التي دفع ذاته إليها دفعًا، لا تناسبه هذه الحياة، ودراسة الهندسة البيولوجية.. هل هي ما يريدهُ حقًا؟ لماذا لا يفعل ما نصحها بهِ ذلك اليوم، أن يفعل شيئا يريده؟ ربما بوسعه أن يقصيها عن ذهنه ويعيد ترتيب حياته، يصحح ما اتخذه حتى الآن من قرارات عشوائية لا تتكئ إلا على عاطفةٍ غير آمنة، كأن يطلب من والده أن يعيدهُ إلى الكويت، ماذا عن الأموال التي ينبغي على أبيه دفعها للحكومة كتعويض عن هكذا تراجع، بعد أن حاز على بعثةٍ كان غيره أحقّ بها؟ هل يستطيع توريط والدهً في قرارٍ كهذا؟ لا يجرؤ، لا يجرؤ.. شعر بأذنيه تستطيلان من جديد، تحول بينوكيو إلى حمارٍ!

الفصل الرابع

١

العالمُ يموج بالأصواتِ / الموت / الغبار / الجثث . . العالم طلسم مدوٍّ : ارتجاجاتٌ مجنونة ، مبانٍ عملاقة تنهارُ ، شخصٌ يقفز من الطابق المائة ، ثلاثة آلافِ قتيل مدنيّ ، احتفالات في فلسطين / العراق ، رجالٌ يرقصون بجذل ، هتافاتٌ متطرفة ، والسؤال : كيف يستطيع أن يتنصل من سمرته ليحافظ على حياته مع كل هذه الملاحقاتِ البذيئة التي ما فتئت تتتابع منذ الحادي عشر من سبتمبر القتل! عربي! يشيرون إليه ، أصابعهم طويلة ، بطول الاتهامات الموشومةِ فوق جلده ، اتهامات تجاوز عمرها الألف سنة ، كيف سيتملص ، وهذا الحنينُ الناضحُ في محيّاه قوافيَ . . قوافيَ ، كيف سيتملص؟ وماذا بوسعه أن يفعل سوى أن يركض ! يركض / يسقط / يعاود الركض ممسكًا بأذنيهِ ، وهذه المرة لن ينقذ حياته أن يقذف لهم

بالمحفظة ، يبدو نفط العالم كله عاجزًا عن غسل بقعة دم ، ترى . . كيف سيبدو لو صبغ شعره بالأشقر؟

يتكدسون كالفئران ، ثلة الطلبةِ العرب في الجامعات ، يتكدسون بعضهم بجانب بعض ، يمررون نظراتٍ زائغة على الوجوه ، يتفقدون الغائبين ، أي شخص يتأخر خطوات قد يلاقي حتفه ، «مهما قالوا ، لا تردّ ! لا تستفزهم ، لا تضاعف انفعالهم ! لا أحد يلومهم لو قتلوكَ ، أنت العربي ، وحدكَ الخطيئة في سمُرتك!» ، ماذا يفعل العربي إذا أفلت خيط حذائه في أمريكا؟ المجموعة تغيب وراء الممر ، أصابعه ترتجف ، لا يستطيع ربط الخيط ، جاءته ركلةٌ موجعةٌ من الخلفِ ، سقط أرضًا ، ارتطم أنفه بالسيراميك ، تفجر الدم من أنفهِ ، وجه شاحب وعينان زرقاوان تزمجران «F*** You !» .

زميلاته المحجبات صرن فجأة يحضرن إلى الجامعة سافراتٍ ، متذرعاتٍ بما صدر من فتاوى جامع الأزهر ، بعضهن على مضض ، تتضرج وجوههن بحمرة أليمة عندما يلتقين بأيٍ من زملائهن ، بعضهن الآخر وجدن في الأمر ذريعة ، ربما لذة ، هذا ما تشي به تسريحات الشعر المبتكرة! ريم - زميلته السعودية - ترزح تحت هستيريا بكاء ، رفع أحدهم تنورتها من الخلفِ وهي تمشي ، ألا يذكّر ذلك بحادثة طرد بني قريضة من يثرب؟ الوضع اليوم مختلف ، هي من تستحق الطرد ، هي البادئة / هي العربية! أحمد يرقدُ في العناية المركزة ، تعرض لاعتداءٍ بالضرب عند باب شقته ، ضربوه بالعصيّ

حتى أغمي عليه، عُثر عليه ملطخًا بالدم والبول والبراز، عاريًا من الأسفل، رُمي بنطلونه من النافذة، وهو.. كم سيصمد؟ لم يعد يطيق الأصابع البذيئة عندما ترتفعُ في شارات خليعة، الشتائمُ اللاذعة التي لم يتصالح معها يومًا «son fo bitch»، يشتمون أمّه ليبكي ويقضم أظافره، حتى محاسب البقالة الودود لم يعد يبتسم، وعندما يكون ضائق المزاجِ يصرخ به صراحةً Go Home.. ليته!

تطلبُ منهم الجامعةُ أن لا يظهروا طالما أن جلودهم سمراء وشعورهم سوداء وألسنتهم لا تستطيع لفظ الـ R الأمريكية الخفيفة، من الخطر أن تطلب الماء (ووتر)، الوِ لسانك قليلا ولتكن (ووررر) لعلك تنجو! يتغيّب أيامًا، أياما تتداخل لياليها مع نهاراتها حتى يكاد لا يستطيع أن يحدد أين تبدأ أو تنتهي، تسمّرٌ طويلٌ أمام التلفزيون، مفاصلُ تتيبس، ركبٌ تتحنّط، والوقتُ.. كائنٌ زائغٌ، اتصالاتٌ كثيرة من الوطن، أصواتٌ لأسماء يكاد ينسى وجوهها، كلها اليوم تبزغُ كما لو كانت هنا طوال الوقت، تطمئن على حاله، انتقل إلى أريزونا حيث شعلان، قالوا بأن الوضع هناك أقل.. الموت أقل، الكره أقل، داخلهُ دفقٌ من الأمانِ بمجرد أن احتضن أحدهما الآخر، هذا العالم أغرب من قدرة حواسه على الاستيعاب، المكالمات لا تنقطع، الأمّ المفجوعة تولولُ مذعورةً عبر الأسلاكِ، يطمئنانها بأنهما معًا، وبأنهما بخير، يرددان ذلك كالآلات المسجلة، ولكنهما في الوقت ذاته يحدقان بعضهما ببعضٍ بكثير من التساؤل..

من يمكن أن يكون الفاعل؟ احتمالاتٌ ملوّنة : اليابان ، أسامة بن لادن ، أمريكان! مشتبهون كثر ، من يستطيع أن يفعل شيئا كهذا ، أن يزج مصائر آلاف البشر في وديانٍ حمراء ، أعضاءً بشرية وحديدٌ ودمٌ ، ما زال الموت يثرثرُ على الشاشات ، أسابيعُ تمضي ، العجائزُ يحملن السنين العجاف في تجاعيد أعناقهن الهزيلة إذ تشرئب بين ركامِ الحجارة والجثث ، يفتشن عن بقايا بين البقايا ، وكأنّ هناك ما يهم ، وكأن شيئا ما زال يبقي خلسةً على قيمته في هذا العالم ، أي جدوى؟

يحدق في شاشات الكمبيوتر ، منتديات إلكترونية كثيرة ، مختلفٌ ألوانها ، زرقاء ، برتقالية ، بنية ، مزيجٌ لا يتجانسُ من الأفكار ، أيقونات ضاحكة ، أخرى تزمجرُ : لعن الله أمريكا ، هذا يومُ لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوءُ الدار! هذا ثأرُ السماء لأطفال فلسطين ، احتفالات ، زغاريدُ تكادُ تُسمع من خلف الشاشة ، وجوهٌ خضراءُ تضحك ، أصواتٌ تصدحُ : الله أكبر . . وأصواتٌ أخرى خافتة بكل ما يحمله الحزن من معنى ، **ولكنّ النبيّ حرّم اقتلاع الشجر وقتل البهائم فكيف بـ . .؟!**

لم يكن لينخرطَ في نقاشٍ من هذا النوع مع أسماءٍ لا تشبه الأسماء التي علمها الله لآدم ، لا يملكُ من الحجة أكثر من منطق الإنسانية ، لا يملكُ من الرأي أكثر من دموعٍ تقطرُ أمام الأشلاءِ وكثير من اللا فهم ، ربما . . لو كانت سعاد هنا لما ترددت لحظة في الانخراطِ

بينهم ، يتخيّلها الآن ويبتسم ، الشجاعة الصغيرة ! تشمّر عن ساعديها وتقبض على أعناقهم واحدًا واحدًا وتؤدبهم! لها أسلوبها ، العرّافة العارِفة ، تستطيع أن تحوّل من كل إنسانٍ إلى بعوضة لو شاءت ، إنها ستري الجميع كيف ينبغي أن تكون عليهِ الأمور ، ليتها هنا ، لو كانت هنا لاستطاع أن يشعر براحةٍ أكثر ، ينبغي أن يُحضرها ، أرسل إليها رابط المنتدى الإلكتروني بالإيميل ، طلب منها أن تقرأ النقاش ، نقاش زمرةٍ عجيبة متعددة الجنسيات ، بين بهجةٍ بذيئة في الصدر والإحساس المرعب باللا منطق أمام الأشلاء الأمريكية ، شعر فجأة ، على نحوٍ مفزع ، بأنه مثل رجلٍ يختبئ خلف فستانِ امرأة ، لم تكن الصورة دقيقة ، لنقل : مثل طفلٍ ضخم يختبئ خلف فستان امرأة ، كان الخوفُ في أعماقه هو طفلهُ ، طفله الذي يربّيه ويأخذه معه حيثما حط ، كيف ستراهُ هي؟! هو العاجز عن خوض معترك نقاش في سبيل ما يؤمن به ، هل سيكون يومًا قادرًا على خوض معركة لأجل حب؟ لأجل أنثى؟ أو ربما لمجرد أن يستعيدَ حقًا ، أو أن يطرح الآخرين أرضًا ويريهم بأن أحدًا لا يستطيع استغلاله أو النيل منه ، أرعبه المشهد ، هذه الصورة لا تلائمه ، لا تلائم الخفوتَ في صوتهِ ولا قلقه الدائم ، لكنه يحتاجها ، وسط الأشلاء والجثث والشتائم ، أغمض عينيه ، يشعرُ بأطراف أصابعها على وجهه ، تتحسس ملامحه ، جبينه ، أنفه ، ذقنه ، يشتهي لثمها ، يقع في بكاءٍ موحشٍ ، ويتزامن بكاؤه مع بكاءِ طفلٍ في التلفزيون ، كأن والدهُ في طيارة الشؤم لحظة

ارتطامها بالبرج . .

يتكوّر على الأريكة الوحيدة في الشقة ملتفًا بروب الصوف ، يتساءل إن كان البرد حقًا أم أنه إحساسه باللا فهم ما يجعله يرتجف ، يتابع السحن (الأمريكية والعربية) على الشاشة ويتمزق ، كم مضى؟ لا يذكر ، العمرُ كله محض يوم أو بعض يوم ، بليالٍ ونهارات لا فائدة ترجى من تعاقبها باستثناء الإحساس بالتغيير ، شيءٌ يبقيك قيد اليقظة ، قيد الإحساس بأنك هنا ، في العالم ، ولستَ في جهنم ، حيث الزمن كلمة خرساء .

يزحف ثقيلاً ، يلقي نظرة فارغة على شوارع أريزونا ، أمريكا تفقد فتنتها في كل يوم ، يمرّ في الشارع - أسفل الشقة - بعض الشقر ، يعيد رأسه إلى الداخل ، رأسه العربي ، شقيقه يدلفُ الغرفة ، يرتدي شورتًا بمكعبات خضراء زيتية وفانيلة بيضاء ، كم هزُل! يبدو نحيفًا على غير العادة ، ركبه بارزة ، غامقة ، جافة ، ولكن ذقنه محلوقة ، الذقن المهملة ذنب ، اللحى انتحار! لماذا يتخفف شعلان من ملابسه بالقدر الذي يثقل فيه مشعل على جسده بالثياب؟ يتحسس ذقنه ، يحكّه ، أصابعه تتخلل الشعر النابت ، ينبغي أن يحافظ على حياته أكثر ، أن يحلق ذقنه ، سؤالٌ روتيني : اتصلت أمي؟ اتصلت . . شلونها؟ الله يساعدها ، يبتسم ، يريدُ أن يضيف (نا) أيضًا ولكنه يفضل أن يبقي على رباطة جأشه أمام أخيه ، يفرغُ كلٌ منهما هواجسهُ في عينِ الآخر ، خوفٌ وسأمٌ من الخوف ، دون أن يطغى

أحدهما على الآخر ، يتبادلان الأعين ويستمر الصمت ساعات أخرى من التشنج على الأرائك أمام التلفزيون ، كثيرٌ من الأشلاء هذه الأيام ، يراقبان إجراءات الإنقاذ ببلادة . . صوته يجيء مبحوحًا (ما عندنا خبز) ، لا تعليق ، لا يهم ، الخروج لشراء الخبز مخاطرة ، سيظلّان هنا ، سيأخذان بنصيحة ماري انطوانيت . . سيستعيضان عنه بالبسكويت .

٢

الأصوات في الكويت تطالب بإعادة الطلبة إلى الوطن ، وبتوفير مقاعد دراسة لهم في جامعة الكويت ، الأصواتُ تزداد صخبًا ، ثمة تحركاتٍ كثيرة من أجلهم ، شعورٌ غامرٌ بالدفء والحنين ، هل أصبحت العودة ممكنة؟ الوطن ، صدرُ الأم ، الحرّ ، النخل ، البحر ، الأسواق ، المساجد ، الأصحاب ، الأهل . . سعاد؟!

يتوقفُ هناكَ ، يدفنُ وجهه بين كفيه وكأنه يتحاشى استحضارها ، ندم على رسالته الأخيرة لدرجة لم يراجع معها بريده ثانيةً ، ما كان ينبغي أن يظهر عجزه بهذا الشكل ، عجزه عن قول رأي على أقل تقدير ، يشتهي أن يحفر في صدره حفرة يطمر فيها رأسه ويدفنه ، جسده يزداد هزالاً وثقلاً ، من أين يأتيهِ كل هذا الثقل؟ يشعر بروحه قابعة في كعب قدمه ، في الأسفلِ هناك ، مع غثاء خوفه وشتائم أمريكية قذرة ، مع آثار حروق السجائر على جلد أحمد ، وأطفال ينتحبون في الشاشات الناطقة ، البشر كلهم إذا أرادوا الانتحار

يقطعون شريان معاصمهم ، وحدهُ ينتحر في الأسفل ، في كاحله الحزين ، هناك غطست روحه ورفضت أن ترتفع . .

تسمّر أمام الشاشة الصغيرة ، رسالة صغيرة تنتظره ، كم يندر أن تنتظره الرسائل! كان يرتعدُ وهو يضغط على رابط الرسالة ، تتفتح الشاشة أمامه : **لا أتعاطف مع العميان ، هل أنتَ بخير؟!**

لحظات خرساء ثم وجد نفسه غارقا في البكاء ، بكاء لذيذ ومر يطلقه من صدره لأوّل مرة ، هل هذا حلم؟ إنها تقلق عليه! ماذا يستطيع أن يكتب لها ، ماذا لو أخبرها عن ذلك الذي وطأ مؤخرته بحذائه ، وكيف أنه عاود النهوض بصمت وأكمل طريقه وسط القهقهات الوقحة ، وأنه شعر برطوبة غريبة في عينيه لكنه لم يكن يبكي أبدًا ، أم يخبرها عن القبعة العملاقة المضحكة التي صار يرتديها حتى لا يتعرف أحد إلى سحنته العربية السافرة في الحنين؟ ما أجمل ذلك ، أن تنتظره رسالة صغيرة ، قلقة . . ما أجمل أن يبكي لأنها تقلق عليه .

العودة ممكنة وبقليلٍ من الخسائر ، مزيجٌ مجنونٌ من الانتشاء والذعر يملأه ، يريدُ أن يعود وحسب ، العالم بذيء ولكنّ الكويت جميلة ، يغمض عينيه ويتنشقها مثل صدر أم ، الكاري والطوز في هوائها ، وشجيرة الريحان عند باب منزله ، الكويت . . دافئة! يلجأ إليها المتعبون لتضع كفها برفقٍ على صدورهم ويتبخر الخوف . . العملاق الهائل المخبول! القبعات العملاقة ، وصمة الذنب التي

تلاحقُ محياهُ ، هذا المكان ليس له ، أمريكا ليست للجميع في النهاية ، ليس الآن ، أمريكا الهائلة ليست فسيحةً بما يكفي ، وتلك البقعة المتضائلة من العالم ، الكوتُ السماويّ الصغير ، هناك بوسعه أن يعيش ويقرأ في السياسة ويتحذلق بين رفاقهِ وأن يعشق ، أن يضع ساقًا فوق الأخرى في «القهوة الشعبية» ويرتشف أنفاس الأرجيلة بعمقٍ ويفكر في سعاد ، تصبحُ ذكراها شيئا رائعا في أوقاتٍ كهذه ، إنها قلقة ، يتدفق الدم دافئًا في عروقهِ ، تنتابهُ رغبةٌ بالرقص لولا العيون الأمريكية الجاحظة تحت الأنقاض ، معبأة باللومِ والحنق ، كثيرٌ من الأدرينالين يقذفُ في دمه ولا يدري ماذا عساه يصنع به ، يركضُ أحيانًا في غرفتهِ الصغيرة ، يصنع دوائر سريعة متتابعة ، لا يكفي . . طاقته متدفقة ، يتشقلب مرارا ، الخوفُ والغبطة معًا ، خليطٌ جبارٌ من الطاقات . . ما يلبث أن يترسب في أعماق روحه في نوبة حنين شهيّ ، إنها تردّ على رسائله ، تلقنه الوصايا الرؤوم : لا تخرج من المنزل دونما حاجة ولا تنسى قبعتك المضحكة! لها أسلوبها الفريد وشتائمها الشهية ، سيصبحُ قريبًا منها أخيرًا ، سيغدو من الممكن أن يتنفسا هواءً واحدًا ، المسافة تتقلّص ، مناسبات اللقاء تتمدد ، لن تكون خسارة تلك العودة! ما زال بوسعه أن يتبجح بين رفاقه بطريقته الأمريكية في لفظ الراء ، وأن يتفوق في مقررات الإنجليزي ، وأن يدرس في الكلية التي يريد ، أن يفعل شيئا يريده ، أليس هذا ما قاله؟

٣

- ناوي تكمّل دراسة الهندسة؟

في صوت شعلان شيء من قلق ، يتظاهر بالانهماك في ترتيبِ حقائب العودة مع مشعل وهو يرمقه من زاويةِ عينه ، يلاحقُ تعابيره المصمتة ، وجهه المجوّف كوجهِ تمثال .

- لا

هل يستطيعُ أن يضيّع فرصة كهذه؟ كان الأمر واضحًا ، حتى إنه لم يفكر بالأمر ، كان يمضي بكل تلقائية إلى ذلك الاتجاه وكأنه قدره .

- علوم إدارية .

احمرّ وجهاهما معًا ، الأول من الغضب ، الثاني خجلا ، صاح شعلان باهتياج :

- كلية سعاد !

- سعاد شاريتها بفلوسها؟

- هي طلبت منك تحوّل؟

- لا .

- صرّحت لك بشي؟

- لا .

- خلاص لا تصير غبي .

- أنا مو غبي .

- والله غبي .

- مو شغلك .

لا يذكرُ كيف تحوّل الأمر بينه وبين أخيه إلى عراك ، قبض كلٌ منهما على قميص الآخر وتطارحا ، **أنت تدمّر نفسك!** هذا ما قاله ، ولكنه لم يكن لينصت ، كان غاضبًا ، الواحد يوجه لكماته إلى الآخر ، سالَ الدم من أنفهِ ولكنّه دفع بشعلان إلى الجدارِ وضغطه هناك ، ردد بصوتٍ يشبه الفحيح : لا تتدخل! لوى شعلان ذراعه وأجبره على الركوع على ركبتيهِ ، **ستقضي عليك** ! لم يردّ ، الدم يتدفق غزيرًا من أنفه ، ولكنه كان سعيدًا ، مندهشًا من رؤيةِ أخيه يبكي ، سألهُ بصوتٍ لا يكادُ يسمع : **تحبها؟**

الفصل الخامس

١

في الكويت الدافئة كان يبتسم وهو يمرغ وجهه بالوسادة ، أمه أطفأت الأنوار وتركت على جبينه نداوة قبلة ، يشعرُ بكثيرٍ من السلام ، إذا . . الحياة ليست بالسوء ذاته! تقلّب على سريره ، أغمض عينيه ، شعر بأن كثيرًا من الأصوات تذوب في الصمت الذي يلفه ، إنه متعب ، ولكنه مستثار أيضًا ، كل شيءٍ مشوّق ، النومُ هدرٌ للوقتِ ، حاول أن يستحضر خاطرًا مبهجًا ، أصابعها مثلاً . . على جبينه ، نعم على جبينه! لا ، لا . . على شفتيه! أغمض بقوة ، حاول أن يصنع مشهدًا أكثر حميمية ، تلوى بشوق ، يتخيّل أنها ممددة إلى جانبه ، إنها مريضة ، محمومة ، خدودها متورّدة بشكلٍ مفرط ، عينها تلمع لفرط الحرارة ، مريضة وتبدو في مرضها أجمل من أي وقت مضى ، هكذا يستطيع . . يستطيع أن يمسّد شعرها ، هل . .؟ مريضة ، شبه

نائمة ، ألا يجعل ذلك الموقف أسهل؟ ألا يقلل من احتمال كونها ستصفعه؟ ابتسم ، يتخيّلها عاجزة لفرط ما يشتهيها! أراد أن يحلم بها ، مهّد لحلم كهذا ، شعر بأن نهاية سعيدة لرحلة العودة إلى الوطن لن تكون أفضلَ من حلمٍ حميم جدًا ! لكنه قرر عوضًا عن ذلك أن يتحسسها حقيقةً لا خاطرًا شهيًا ، وتساءل هل ستكون أنفاسها دافئة؟ قفز من سريره وأضاء الأنوار ، فتح شاشة الكمبيوتر . .

كان يتوقّع رسالة ، ولكنه لم يجد شيئًا ، ساورهُ إحساسٌ مشئوم بأنها إشارة ما . . رسالةٌ صامتة : أن لا تندفع ، عادت إلى لا مبالاتها بعد أن عرفت أنه بخير ، هل كان تواصلها الكثيفُ معه مؤخرًا من منطلق مؤازرة إنسانيةٍ فقط؟ شكوكٌ مدببة تنغرسُ في رأسه ، يرفض أن ينزف ، إنه سعيد ومتفائل أكثر من أي لحظة أخرى في حياته ، فهناك الكويت ، وهناك قريبًا سعاد ، لن يستبق الأحداث ، ما زال يشعرُ بأنه ينطلق بشكلٍ صحيح ، بشكلٍ صحيح إلى ماذا؟

لم ينم تلك الليلة أبدًا . . كان طيفها حاضرًا بشكلٍ بهي ، ولكن أنفاسها لم تكن دافئة أبدًا .

٢

كتب لها كثيرًا منذ وصوله، ردّت بدايةً بشكلٍ فاتر: welcome back، وأيقونة ابتسامة صفراء، كخاتمة للالتزام بمراسلته بعد سلسلة الرسائل التي تبادلاها، تبدو خافتة بشكل مقصود، عكس حماسته المتفجرة من كل ما يقول، يعرفُ بأنه ليس عبثًا أبدًا أن ترحّب به بالإنجليزية، فكّر: *نحن كائنات لصيقة باللغة، نرضعها ونعشقها ونتنشقها، لكنها جاءت بلغة أخرى للترحيب وكأنها تضع بيني وبينها حاجزًا*، هي لا *تتفرنج لكنها لا تريدُ ترحيبًا حارًا*، لا *تريدُ حتى أن تشترك معك في لغة التخاطب!*

كتب رسالة أخرى، تشبه الرسائل التي لم تكن ترد عليها، عن أمه والهريس الذي تناوله يوم عودته، وأنه ينوي الالتحاق بكلية العلوم الإدارية (أيضًا)، تردد بخصوص وضع هذه الكلمة، شعر بأنه سيبدو سخيفًا لو قالها، وشعر أيضًا بأنه سيبدو أكثر سخافةً لو لم يقدم لها أسبابًا، شطب العبارة، ستعرفُ بالأمر عندما تراهُ في

الكلية ، ستبتهج بالتأكيد ! بالتأكيد !

يبالغ في هندامه كل يوم ، يقدّس أناقته تحسبًا للقائها في أي لحظة ، يتحذلق بالحكمة الفرنسية «أنت لا تعرف متى تقابلُ حبيبتك» لذا عليه أن يكون دائما في أبهى ما يمكن ، مضى أسبوع دون أن يلمحها ، أفرغ الوقت في جوفه إحساسًا لزجًا بالعبث ، يمشي في ممرات الجامعة بأعين متقافزة ، تتحرك بقلقٍ من وراء العدسات المعتمة ، أين هي؟ وكأنها ليست هنا أبدًا ، وكأنها ليست في هذا العالم أصلاً ، كتب رسائل كثيرة ، حاول معرفة مواعيد محاضراتها ، لم ترد .

٣

لم يحسب حساب ذلك ، أن يخذله كاحلاه وتتيبس ركبتاهُ ثانيةً ، لماذا تبدو مباغِتةً دائمًا ، حتى في أكثر حركاتها عفوية ، تلتفت لتودي به في وادٍ ما ، في حلمٍ أو كابوس ، رآها . . مع اثنتين من صديقاتها ، هي تثرثر وهما تضحكان ، لعلها لم تره ، لا يبدو أنها رأتهُ ، تبدو في تمام ألَقها ، في تمام جاذبيتها المربكة ، ترتدي الأسود ، إنه لا يحبّ الأسود ، اليوم سيحبه ، تبدو أسرةً مثل لغز ، وقفت لبرهةٍ أمام أحد الفصول ، تابعت الثرثرة . . الفتاتان تابعتا الضحك ، لوحت لهما واستكملت طريقها ، ارتجفَ بقوة! بقوة! يعرفُ بأنها الفرصة الأفضل التي يملك لخلق مفاجأة ، **هل ستبتسمُ عندما تراه؟ هل** ستبتسم؟ ارتعد لهكذا سؤالٍ ، ولكنه لا يملكُ الوقت لوضع الاحتمالات ، لا يملكُ سوى أن يتصرّف كما رسم المشهد في ذهنه مرارا ، يريد لقاءً يضخّ الدفء في أطراف الأصابع ، يريدها في حياته . . تمشي إلى جانبه في ممرات الجامعةِ ، هي تثرثر وهو يضحك ،

هكذا تجري الأمور ، وهي هكذا في أفضل صورة ،*أسرعي يا قدميّ!*
هل كان يبدو أبلهَ بتلك المشية ، يتصرف وكأنها ستنقرضُ ، لا يملكُ أي فكرةٍ عما ستجري عليه الأمور ، ولكنه متيقن من ضرورة الخطوة ، تصبح بها الأشياء أكثر سطوعًا ، ترسخُ تحت مسمياتٍ ثابتة ، إما حبٌ أو لا حب ، لا حلول وسطًا ، لا حالات برزخية ، لا أشباه مسميات ، لا أعراف ، يجب أن يكون على بينةٍ وضوء ، نعم! فلتسرع خطاهُ إذًا ، هذه الأنثى كالضوء المارقِ ، تفلتُ من بين الأصابع وتضيع ، إنه لن يظهر لها من الخلف ، ينبغي أن يلتفّ على الممر ليبدو ظهوره محض مصادفة ، ليس جيدًا أن يظهر وكأنه يتبعها ، يجب أن يلوي عنق الصدف / يكذب قليلاً ، لكي يصنع لقاءً يبدو عفويًا ، وهي . . لن يفكر بهذا الآن ، سينطلق وحسب ، مزيدٌ من التفكير يربكُ الفعل ، لقد سئم قراءة الحروف بلا نقاط ، إنها أمامه ، لم ترهُ بعد أم . .؟ ها هيَ ، رأتهُ! لقد رأتهُ! لم تدهش ، **ما الذي يؤخر تلك الشفاه عن الابتسام؟** قلبه يقفز ، أليست فرحةً بوجوده؟ ابتسم ، لم تبتسم ، أبطأت خطواتها لثانية ثم عادت تمشي على الرتم ذاته وهي تشيحُ بعينيها عنه ، وكأنها لا تعرفه ، ماذا دهاها؟! لا تضيّع الفرصة ! «*هاي سعاد*» حياها ، عندما تقاطعا هناكَ ، في الممر الهزيلِ . . استمرت تمشي ، تمشي مثل آلة ، متأكدٌ بأنها سمعته ، تشنج فمها قليلاً ، ولكنها استمرت في المشي ، لم ترد . . لماذا؟!

٤

شفته ملتصقةٌ بركبتهِ تحت الأغطية ، يتذكر كيف أنه كان - كما الآن - يتكوّر ، يتكوّر بقدر ما يستطيع ، يتمنى لو كان أكثر ضآلة وتقزمًا ، ربما لو كان الاختفاء ممكنًا ، الانطفاء ممكنًا ، أي شيءٍ يقتل الوقت والذاكرة ، الذاكرة بالذات ، تلك اللعينة بمخالب ، تنهش فيه ، لا تترك له سوى الأسئلة ، الأسئلة مدببة الأطراف كأنصالٍ تمشط رؤوسها بخاصرته ، لا تقتله تمامًا ولكنه يعرفُ إلى حدٍ بعيد معنى السفر في الفناء ، الفناء الذي لا يأتي طالما أن حواسه على هذا القدر من التوقد ، ماذا كان بوسعهِ أن يفعل؟ أن يتحاشى النظر في عينيّ شقيقه ، يدّعي دجلاً بأن الأمور تجري على نحوٍ جيد مع فتاته الحلم؟ سيضحك الآن ويبكي لاحقًا ، في ثلث الليل الأخير ، لا يريدُ شيئًا ، ولا حتى استعادة آماله الساذجة التي كان يربّيها كما يربي الأرانب في حظيرة الروضة ، يريدُ أن يفهم أكثر ، أن يحتوي اللا متوقع في تلك الأنثى ، على أي وترٍ ينبغي أن يعزف لكي يجيء؟ هو الأعزل

الفارغ ، بلا ثقة أو مواهب تذكر ، يدورُ في فلكها كالمتعبّد ولكنها لا ترضى ، لا ترضى أبدًا . .

سـاذج! على الرغم من حـدّة الألـم الذي انتـابه ظنّ بأنهـا ليـست النهاية ، وأن ما فعلته ليس جوابًا ، ليس سدًا ولا واديًا ولا خندقًا ولا دولابًا ولا جدارًا يخبط فيه رأسه المعبأ بالأمل المغشوش ، لماذا تدفعهُ إلى تلك المنطقة غير الموحلة وغير المعشوشبة ، غير الميتة وغير الحية ، أم تراهُ هو البليـد الذي لا يفـهم لماذا تتـحاشـاه ، لماذا كلمـا رمـقـهـا في الكلية أشاحت عنه ، لماذا كلما لمحته في منعطفٍ سلكت ممرًا آخر ، أو تشبثت بإحدى صديقاتها لكي لا يتبادلا التحايا ، لماذا تبدو وكأنها تريدُ إقصاءه ، تريدُ له أن لا يقترب ، وكأنها . . **وكأنها تخاف عليه** منها! يشعرُ بأنها تكرهه ، ولكنه عندما ينظر في تلك العينين لا يجد كرهًا ، يجد تصميمًا على شيءٍ لا يعرفه ، ربما لا يريد أن يعرفه ، أن يصلب الأمل الكاذب أمام عينيه ويرى النهاية الفادحة ، النهاية التي ما زال يكابر لكي لا يراها : لا . . لا منتفخة جدًا! لم يكن حـذقًا بما يكفي لكي يفكّ شفرة تلك الرسائل ، إنه لا يستوعب قدرتها المرعبة على التحوّل إلى النقيض المتطرّف ، لو كان يملكُ سببًا واحدًا ، سببًا واحدًا فقط لابتعد – على الأرجح – ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولكنه لا يفهمُ شيئا ، وطالما هو في تلك المنطقة البليدة من الحيادِ المترامي ، سوف يعيد الكرّة ، ربما هي على خلاف ما تبدو عليه في *مونتانا*؟ لعلها تتحرج من أن تتبادل التحايا مع شابٍ في الكلية ،

أليس احتمالاً؟ أليست في النهاية ربيبة هذا الوطن وطقوس التنائي وملازمة الحواشي وتحاشي ما يمكن أن يورّطها في شبهةٍ؟ أليسا في وطن لا يغفر تبادل تحايا من هذا النوع؟ لماذا لم يحسب حساب ذلك، ما كان أغباهُ يوم حيّاها في الممر الغاصّ بالآخرين! ينبغي أن يقتنص فرصةً أخرى، يجب أن ينتظرها في مكانٍ تكون فيه وحدها، وحدها تمامًا، يحييها كما يليقُ بشوقهِ وكما يليق بسحرها، لقد قرر، قرر أنه إذا لامسَ منها إقبالاً سيفضحُ مشاعره، ارتاح لهذا الخاطر، هدهد به شكوكه، وصار يراقبها متخفيًا، يحرصُ أن لا تنتبه له ولكنه راقبها عن كثب طوال أسبوع، لم يحضر أيًا من محاضراته في سبيل اكتشاف جدولها الدراسي، يعرف الأمكنة التي توجد بها، السلالم التي تنزل منها، يحسب حضورها بالدقائق، إنها ليست ملتزمة بالمواعيد كثيرًا، ولكن يحدث كثيرًا أن يلمحها، في انتظاره المتحفز، يشعر بأنها تحس بعينيه، كان يبدو ذلك جليًا عليها عندما تشحذ خطاها بالهرولة . .

لم يخطر بباله أبدًا أن يجدها في انتظاره، يوم التقت عيناها الغاضبتان بعينيه وتضرّج بحمرةٍ حمقاء شاسعة، اقتربتْ منه، اقتربت منه جدًا، احتبست أنفاسه، وتمنى لو لم يكن مضطرا لبلع ريقه، دفعته بإصبعها في صدره فتراجع خطوةً إلى الخلف، هو الضائعُ في مباغتة المشهد لا يكاد يفقه شيئًا مما يحدث . .

- سعاد!

- إنت تلحقني أنا أدري !

شعر بأن روحها ستطفر من عينيها ، لم يدرِ بم يجيب ، وراح يدمع على نحوٍ أحمق .

- تبكي؟ ليش تبكي؟ ليش تبكي . .؟!

أي شيءٍ أسوأ من هذا؟

- ما تبي ترد؟

- . . .

- ليش تلحقني؟

- أنا أحبّك سعاد .

لم تتوقع أن يتجرأ أخيرا ، ولا هو توقع ذلك ، بدا كشخص لا يهمه ألم الارتطام وهو في غمرة سقوطه ، على الرغم من أن صوته جاء مرتعشًا على نحوٍ مهين ، وعلى الرغم من أنه عجز عن كبح دموعه ، إلا أنه وجد أن تلك الكلمة قد فعلت فعلها ، خفتت القسوة على وجهها فجأة ، ولكنه لم يجد أي ابتسامة . . لماذا؟

كانت شفتها ترتجف ، كانت تبكي أو تكاد :

- شفيك سعاد؟

- إنت على بالك أنا ما أدري؟ ما أحس؟

- سعاد تحبيني؟

- أحبك؟!

- أقصد . . (تلعثم وتعرّق) تقبلين مشاعري؟

شعر بأن عليهِ أن يغمض بعد كل ما قيل ، يغمض . .

- آآه . .

رددت ذلك ، ثم دفعته بيدها بقوة وصاحت : **وخر!** ومضت . .

كان يشعر بإيقاع نعلها مثل ضرباتٍ فوق رأسه ، أذنه تستطيل . .

الفصل السادس

١

الثانية عشرة صباحًا ، وقتٌ سيءٌ للمراجعة ، يتذكر اختبارًا قصيرًا نسي أمرهُ تمامًا ، يبتسم ، وكأنه معتادٌ على هكذا نسيان ، *عادت لتدمّرني* . . يقول في نفسه ، أصبح الاختبار القصير قليل الشأن فجأة رمزًا لكل حياته ، كان معتادًا على ذلك ، النسيان الشره الذي ينتاب ذاكرته لفرط ما تفرض هي حضورها ، كان قد اجتهد - منذ تلك الـ «لا» الموجعة - أن لا يتكرر المشهد في الكويت ، صورة العاشق الذاهل الغبيّ ! نجاحاته التي حصدها مؤخرًا لم تصب في أي مشاعر مبهجة ، كانت هروبا . . ربما تعويضًا .

رمى بالغطاء عن ظهره ، نسيَ بأنه عاري الصدر ، التكييف يعملُ بشكل طبيعي ولكنه يتعرّق بغزارة ، بحث عن دفتر محاضراته ، تصفحه ، لم يكن راغبًا بالقراءة بقدر ما أراد أن يكتشف مزيدًا من

الأجوبة أمام التنظيم العجيب الذي يسيطر على كرّاسه ، لم يكن يغفر لنفسه خطأً إملائيًا واحدًا ، أو صفحة غير مسطرة الأطراف ، أو أن يغفل عن كتابة التاريخ ، هذا التنظيم العسكري لم يكن يجده في نفسه من قبل ، وكأنه انعكاسٌ لآلام بررها بالاندفاع والعاطفة ، العاطفة تخوننا ، هكذا قال .

في هذا المنحى كان ينطلق : حرصٌ وحذرٌ وكثيرٌ من الفراغ ، قليلٌ معدمٌ من المعنى ، ينتقمُ من عاطفته بتقليصها ، بوضعها ضمن قوالب ، صفحة مسطّرة ، أطر ، براويز ، معلّبات ، مربعات الاختناق الرائع ، كان ينجو بالانطفاء ، بالحواس الضامرة ، «**لا تحب ، لا تؤمن ، لا تتحرك**» اللا فعل هو ما ينبغي اقترافه لأجل حياة آمنة ، واحد زائد واحد يساوي اثنين ، منطقٌ سليم لحياةٍ دون حوادث ، دون افتراضات خاطئة ، دون تخمينات ، دون حفرٍ وكاحلٍ ملتوٍ ومشية تشبه مشية البطة ، وبكاء في الأزقة وآذان طويلة ، دون حب ، حياة فارغة ، تلك هي جنتك ! انطلق ! لا تدع شيئًا يستوقفك ، لا تدري متى تأتيك ركلةٌ من الخلف ، امض بمشيتك ، يا دجاجة مذعورة ، آلامك ستلحق بك في حينها ، لا تنظر في عينيها . . تلك الكائنات اللئيمة ، ستغويك مرة أخرى ! ستضمك حتى تعيد فيك ضخّ ما اجتهدت طوال سنين لقتله ، قلبك اللعين ! انطلق بأقل ضرر ، ثمة سلامٌ في الموتِ الأخير ، في تلك الحفرة الحميمة المعتمة تحت الأرض : أنت بأمان !

غرفته تشبه كراسه ، تنظيمٌ لا يقبل برشاوى التفاصيل ، لا حميمية ، لا ملامح ، ترتيبٌ متقنٌ وكأن من يقطن الغرفة ليس كائنًا بشريًا ، إنه الترتيب الذي يعكس الخواء لا الرغبة في التنظيم ، رجلٌ لا يريد علاقة من أي نوع مع أي شيء ، حتى مع أغراضه الصغيرة ، حتى مع البياض الموحش للجدران ، حتى مع الأثاث الذي بدا مقصودًا أن يجيء فاترًا ، باهتًا . . كانت غرفة رجلٍ لا يثق حتى بزجاجة عطره اليتيمة وفرشاة أسنانه ، ومزيل العرق ذي العبوة السوداء الطويلة . . فتش في المكان عما يمكن أن يشير إليها ، أو ربما يشير إليه ، هو عاشق السنوات الخمس ، أليس غريبًا أنه عشقها إلى هذا الحد دون أي تذكارات؟ صور فوتوغرافية . . رسائل . . هدايا . . ماذا عن غلاف الآيسكريم الذي التهماه في مونتانا؟ لماذا لم يفكر بالاحتفاظ به؟ لا شيء ، أرفف خالية ، كتب دراسية ، هاتف نقال نوكيا ، لم يملك يوما أي تذكارات محسوسة لهذا الحب ، مجرد أضغاث لمواقع انترنت بليدة ، متقلبة ، تبدل ألوانها لتبدو في كل يوم مثل أمكنة جديدة ، منافقة ، عارية من الرائحة ، وكأنها لم تكن تشكّل مقاعد غرام ! هناك في اللا مكان . . توطدت ملامح حبه ، هل هذا العري الشاسع للتفاصيل ، الغياب الكثير للتجسد ، هو ما جعل تعلقه بها أكثر التصاقًا من لعنة؟!

اكتشف ، لحظة وصل إلى تلك النقطة من أفكاره ، أنه لا يريد أن يدرس ، نهض بتثاقل ، شعر بدوارٍ حاد ، تنتابهُ هذه الحالة بكثافة

مؤخرًا ، كلما حاول النهوض بعد اضطجاعٍ أو جلوس طويل يقع من فرط الدوار ويعاود النهوض مرة أخرى ، قطع بمشيةٍ مرتبكة ذلك الممر الموغل في العتمة ، كانت مفاصله واهنة ، شعلان في غرفتهِ يقرأ ، لم تتحسن علاقته به منذ تصارعا في *أريزونا* ، مرّا بأطوارٍ متوترة من التغاضي والتجاوز وشيء يسير من الدفء ، لكنهما بعيدان ويعرفان ذلك ، خسرته بسببها *!همهم بألم ، وآلمه أكثر أنه لا يستطيع أن يلومها* على شيءٍ ، أنه وحده كان يبني قصورًا في الهواء ، كان البنّاء الوحيد ، السمسار الوحيد ، العاشق الوحيد ، الحمار الوحيد . .

طرقَ الباب ، لبث ينتظر بإحساسٍ متناقض بالوحشة والانتماء ، يحتاج شعلان ، فُتح الباب ، ما زال هزيلاً ، يرتدي الفانيلة ذاتها! يبدو مثل علامة تعجب منتصبة .

- مشعل؟

- ممكن أدخل؟

شرّع له الباب ، دخل بخجلٍ وجلس على الكرسي المقابل للمكتب ، مثل ضيفٍ غريب ، لم يجسر على الجلوس على طرف السرير ، جالت عينه في الغرفة وكأنه يتذكر وجهًا قديمًا ، عاد شعلان إلى مكتبه ، خلع نظارته ، بدا الأمر غريبًا ، مثل لقاء موظف بمسئوله في العمل ، أكثر من كونه لقاء أشقاء .

- قاطعتك؟

- مو مشكلة .

وتوقف هناك ، لم يسأله عن السبب الذي دعاه لزيارته وكأنه يعرف بأن السبب قادمٌ لا محالة ، كان ينظر في عينيه وينتظر ، يعرف بأن هكذا زيارة في هذا الوقت المتأخر ، بعد كل هذه القطيعة من السنين ، يكمن وراءها سبب قوي ، وبشكلٍ أو بآخر ، حدس بوجود تلك الأنثى ، مرة أخرى ، تقف بينه وبين شقيقه الأصغر ، تمشّطُ شعرها وتدندن .

- اليوم شفت سعاد .

هكذا مباشرة ، هكذا ، دون أن يشعرا بغرابة الموقف ، أو بمباغتة المفاجأة ، وكأن هذا اللقاء حلقة أخرى تستكمل الشجار الذي دار بينهما هناك ، وكأنه امتداد للكدمات الزرقاء والدموع والنشقات وأسئلة جارحة على شاكلة (تحبها؟)

- طلبت تشوفني .

- هي طلبت تشوفك؟

- إيه .

- شلون؟

أزعجته حدة الأسئلة وبرودة النبرة ، شعر بنفسه كمن زُجّ به فجأة فوق كرسي اعتراف ليشرع في التعري ، في التقشّر ، ما زال يحتفظ بكل ذنوبه في مكانٍ خفيّ . .

- شفيك شعلان؟ تحقيق؟!

- عفوًا مشعل ، أنا مالي علاقة فيك ، إنت إلي . .

- يعني أنا كنت غلطان؟

نظر كلاهما إلى الآخر بألم ، كانت أطراف أصابعهما متيبسة ، ونظراتهما . .

- ذاك اليوم . . في *أريزونا* . . ما جاوبت سؤالي .

أشاح شعلان بعينه ، تشنجت شفته .

- فهمت . .

- لا ما فهمت ولا عمرك بتفهم!

- ما تبي توخرني عن طريقك؟

- أبي أوخرها هي عن طريقنا!

- ليش؟

- إنت ما شفت عيونها؟!

أدرك بأن أخاه أذكى مما يبدو عليه ، بأنه يفوقه حذقًا وفراسة ، وشعر بأفكاره تختلط بارتياب ، ما الذي دفعه إلى هذه الزيارة؟ الحنين أم الغيرة؟ أم رغبة التلويح بورقة انتصار أمام غريم؟ أم تراها الحاجة المحض إلى الشقيق البعيد تحديدًا؟ محاولة لاستعادته ربما من خلال السبب ذاته الذي دفع بكليهما بعيدًا عن الآخر؟ شعر بالزفرة التي أطلقها شعلان في صدره هو ، كانت لحظة توحد غريبة تكتسح الأجواء بعد صمت امتد بينهما أكثر مما يطيق ، تأمله وهو ينهض من مكتبه ويجلس على طرف السرير ، وشعر بكثير من الامتنان لتلك المبادرة .

- كتبت لي إيميل تطلب تشوفني في كافيه .

- وليش رحت؟

- ما أدري .

- حتى لو تكتب لي معلّقة ما أروح لهالبنت الملعونة !

شعر لأول مرة بأن شقيقه يكرهها ، يكرهها بقدر ما هو متيّم بها ، الفرق بينهما كان ببساطة أنه لا يستطيع أن يكون بهذه الغلظة .

سأله شعلان وكأنه انتبه فجأة لما يقول :

- ليش بغت تشوفك؟

- خمّن .

- ما عندي فكرة .

- قالت إنها موافقة تتزوجني .

- والله؟

- إي والله!

- مجنونة . .

- عندك شك؟

- وإنت فرحان؟

آه . .

لقد فعلت سعاد فعلها !

الفصل السابع

١

لمحها، في ثوبها الأسودِ، بهالة الغموض المعتمِ التي تلفها، إنها لا تدري به بعد، سيتبعها، لا يفهمُ لماذا يفعل ذلك ولكنه يعرفُ بأن عليه أن يفعل، يتبع حدسه، أين تذهب؟! تعاليْ.. هل سمعتِ في حياتكِ عن عاشقٍ مسعور؟ تعالي! خمس سنوات وفارق عدة خطوات! تعرجُ إلى مكاتب هيئة التدريس، تقف لوهلةٍ أمام باب أحدهم، يبدو مغلقًا، تحرك المقبض بيدها، مقفل، لا أحد في الداخل، تضربهُ بقبضتها بغضب.. تلتفت، تراه، ملامحها الشامخة لا تتحرك!

- أوه..

- ...

لماذا تجمدت شفتاه!

- بغيت تكلمني؟

- إيه .

ابتسمت بخفوت ، لم يجد في تلك الابتسامة نكهة الخبث التي يخشاها ، بدا وكأنها تبتسم خصيصا لتكشط كل مخاوفه ، أردفت تسأل :

- أشوفك في «المنطقة الحرة»؟

- ماشي .

- بعد ساعتين .

شعر بضربات حذائها المغادرة على البلاط توافقُ ضربات قلبه ، ولم يدرِ إن كان مسرورًا أم لا . .

٣

عيونُ النادلِ تألفهُ ، يستطيعُ أن يرى ذلك ، لم يستطع أن يتحرر من شعورِ المذنب ، **المذنب الضحية** ، خاصة وهو يسترجع مشهد خروجها الغاضب من المقهى ، خطواته اليوم تبدو أكثر ثقة ، أكثر توازنًا ، وبوسعهِ أن ينظر في ملامح المكان عوضًا عن التحديق اللا مجدي في ساقه المرتجفةِ . . يذكر كيف لفظت العنوان أمامه **المنطقة الحرة** ، هذا هو اسمها فعلاً ، *المنطقة الحرّة* ! كأنها تخبره بأنها خارج تلك الأطر لن تستطيع أن تكون ذاتها ، كاملةً متجرّدة ، وكأنها تأتي إلى هنا لأن المسمى يُشبعُ فيها الكثير من الجوعِ إلى الانطلاق .

نظرَ حوله ، لقد جاء قبل الموعدِ بنصفِ ساعة ، لعله يحاول ضبط أنفاسهِ على إيقاع متزن ، بوسعه أن يلتفت ، أن يتابع تفاصيل المكان ، في المقهى تسعة كَراسي مرتفعة ، وأرائك تتسع لأحد عشر شخصًا ، كلها بُنية مغطاةٌ بالجلدِ السميك . والسقف . . يحملُ تعريجًا يتيما ، الحوائطُ سكرية البياض ، ثمة إعلانان لمنتجات بارنيز : *موكا* ،

كابوتشينو ، نظر وراءه . . أرفف لبيع القهوة ، في الخارج استطاع أن يميز محلاً لبيع فرش الأسرة ، ثمة معرضٌ مقابل للثريات ، ومبانٍ أخرى قيد الإنشاء ، كثيرٌ منها بألوانٍ غريبة بالنسبة لمبنى تجاري . . وردي مثلاً ! إنه مكانٌ فريد . . تمتم ، لا يتخيل سعاد راغبة في إمضاء وقتها في الأماكن التقليدية التي ترتادها الجموع ، ولكنها قطعًا تمضي وقتا ممتعا في مقهىً بعيد عن كل شيء ، وبمجرد فتح الباب تغمره رائحة الميثان وكبريتيد الهيدروجين !

تمشي وتكبر ، تمشي وتكبر سنين أخرى ، فأخرى ، فأخرى ، لم تنظر إليه ولكنها ابتسمت ، وكأنها تراه دون أن تسقط عليه عينيها ، بدت مترددة ، اقتربت خطوتين ثم تراجعت ثلاثًا ودخلت إلى الحمام ! همهم . . **وكأنها ليست متأكدةً مما تفعله** ، شعر بالتوتر بدوره ، كان على وشك تحيتها لولا أن كل شيءٍ فيها يعطيه إشارات باذخة السطوع بأنها ليست - كما يأمل - عاشقة أنهكها الانتظار ، بل امرأة متعبة ويضاعف تعبها ما تفعله الآن ، كانت ملامحها تغور في الغامض على الرغم من سهولة قراءة اللغة التي ينطق بها الجسد خائر العزيمة .

خرجت بعد لحظات ، بوجهٍ مبلل ومتورّد ، بدت أكثر تماسكًا ، جلست في مكانها إيّاه ، المكان الذي كاد يجلس عليه في أول قدومه لولا أنه تراجع كما لو أن شيئا قد وخزه ، وكأن جذوة من روحها تحوم حوله ، لاحظ أنها عكس المرة الماضية لا تريدُ أن تنظر إليه ، ولا حتى

بتلك النظرة المتحدية الوقحة ، كانت تبحثُ عن شيءٍ ما ، وهو الذي اعتاد أن يتكئ على مبادراتها في صنع المواقف وجد نفسه محرجًا ، هل يبادرُ بالحديث؟

- شلونك سعاد؟

- عطني فرصة أقرر .

بحةٌ غريبةٌ تحاصرُ صوتها ، بدت متثاقلة وهي ترمي برأسها إلى الوراء ، في الحضن الوثير للأريكة الكبيرة ، بدت - مرة أخرى - مخلوقة ضئيلة ، صمتا لدقائق ، قاوم فيها رغبته في صنع بداية ، حتى قالت :

- بتصير حرب . .

- خايفة؟

- لا .

نظرت إليه ، خيّل إليه بأنها تبتسم له ، تبتسم خلف شفتيها ، لا عبر شفتيها ، لم يكن متأكدًا . .

- كأن كل شي صار من قبل . .

- شلون؟

- ما أدري . . كأننا التقينا في مكانٍ ثانٍ ، حياة ثانية ، ما أدري . .

- كأنك موجودة يوم كتب القدر هذا اللقاء . .

- بالضبط ! (رمقته بنظرة إعجاب وكأنها تتساءل كيف خطر له ذلك) .

شعر بالزهو ، لقد استطاع - لأول مرة تقريبًا - أن يقول شيئًا يعجبها ! من هنا يستطيع أن يمضي ، متكئا على تلك النظرات المعجبة ، واثق الخطى بقدر ما تسمح به عيناها .

- والله زمان . .

- تظن؟

بدت ساهمة وهي تضمّ كوب القهوة بيديها وترتشفُ منه على مهل ، أما هو فلم يجد شهيةً للشرب ، شعر على الرغم من الإثارة التي تستعر في داخلهِ بسكينةٍ عجيبة ، وخيل إليه أنه سينفصم بفعل هذا التناقض الفج ، قطعت الصمتَ فجأة :

- شرايك نسوي اتفاقية؟

- اتفاقية؟

- نعطي أنفسنا فرصة تعارف ، مرة ثانية ، أقصد . . كأنك ما تعرفني ، أتوقع ما تعرفني ! نحاول . . وبناءً عليها تقرر .

- أقرّرُ شنو؟

- شـ تقصد؟ تقرر الزواج طبعًا ، أو تصرفُ النظر .

شعر بغرائبية الموقف ، فهي تتكلم عن زواجهما كما لو أنها تعقد صفقة ، وبثقة غريبة لا تتوافق في ذهنه مع حياء عذراءٍ أمام عاشق .

- بس . .

قاطعته بحدة :

- أنا وإنت فاهمين إنت ليش وافقت تشوفني !

- ممكن أعرف على الأقل شنو إلي تغير بالنسبة لك؟

- بدأ الاستجواب؟

- عندك مانع ؟

أفرغت بقية القهوة في جوفها كما لو أنها تعب كأس ماء ، ثم قالت :

- أنت ما تصدقني ، صح؟ قلت لك إني أحتاج لك .

- ساعات أحس إني ماعرفك .

- إنت أصلا ما تعرفني مشعل ، لحسن الحظ ! ها . .

بدا صوته مكتومًا ، حزينًا ، في حين بدت ضحكتها الأخيرة مبطنة بوجع وسرانية .

- ما راح تشرب قهوتك؟

- لا .

- أوكيه تعال معايْ . .

٥

- واو ، أموت في اللاند كروزر !

قالت ذلك جذلة ، وهي تفتحُ باب سيارته وتصعد لتجلس إلى جانبه ، لم يكن يدري ما الذي يفعله ، وهل هناك ما يجب عليه فعله أو قوله ، كأن يستعرض مميزات سيارته؟ أو يستعرض مهارته في القيادة؟ أو يسألها متلطفًا . . أين تحبين أن آخذكِ يا آنسة؟ لا يدري . . لا يستطيع التفكير الآن ، لقد تبعها وهي تركب سيارته وكأنها سيارتها هي . . مدّ يده المرتجفة وضغط زر التكييف ليضاعف من ضخ الهواء البارد ، إنها تتصرف ببساطة ، وبالنسبة إليه ، الموضوع معقدٌ جدًا! إنها المرة الأولى التي تركب فيها فتاةٌ سيّارته ، ولو رآه أحدٌ لـ . .

- حرّك . .

- وين؟

- امش وبس . .

شغل المحرك وانطلقَ بها ، غير مدرك لما يحدث ، صامتًا . . الغريبُ

أنها كانت تدندنُ بلحنٍ ما وهي تطل من نافذة الجيب الكبيرة على الخارج ، فوجئ بسؤالها :

- عندك فلوس وايد مشعل؟

- . . أبوي عنده .

- روعة !

قالت ذلك وهي تضحك بنزق ، غمرت ملامحه موجةٌ من اللا تصديق .

- يمين . . روح يمين . .

- وين بنروح؟

- لا تسأل ، على فكرة . . شلون شعلان؟ يكرهني؟

- لا ، ليش يكرهك؟

- يكرهني لأنه ما يقدر يكرهني .

- ما فهمت ، بينكم شي؟

- اسأله . .

- قولي لي إنتي .

- ماكو شي مشعل ، أقصد . . ما صار بيننا شي محدد ، كل الأحداث صارت داخل ، هنيه . .

وأشارت إلى صدرها ، فسقط بصره على البروز الشامخ لنهديها وأشاح بارتباك .

- فهمت؟

- يعني . . كانت بينكِ وبين أخوي علاقة . . علاقة خاصة؟

ضحكت . .

- روح يسار ! شنو يعني «علاقة خاصة»؟ أنا عندي علاقة خاصة مع كل شيء ، مع الله ، ومع النمل . .

وبدت مسرورةً من حديثها ، حتى إن عينها بدأت تلمع ، واستمرت في الدندنة . .

- شـ بينكِ وبين شعلان؟

- لازم تصدقني مشعل ، أنا ما عندي نية أكذب .

- لازم فيه سبب يكرهك عشانه سعاد .

- أنت سبب قوي .

على الرغم أنه فوجئ بصراحتها ، وعلى الرغم من أنه كان يحدس بشيء شبيه ، شعر على نحوٍ غريب بالتضامن مع شقيقه ، تراءت أمامه صورٌ لهما ، سعاد وشعلان ، يتبارزان بكرة الريشة طوال ساعاتٍ في مونتانا ، يذكر كيف كانت نظرات شعلان محدّقة في الماوراء كمن يبصر تنزيل آية ، ولا يستبعد أيضًا أنها مهدت لهكذا انجذاب عندما قررت فجأة أن تقوم بانعطافٍ نحوهُ ، الشقيق الصامت الجالس في الظل على عتبات البيوت ولا ينظر إلى العالم إلا من خلف عدساتٍ داكنة ، كان غريبًا أن يشعر بالأسى على شعلان ، أن يكون انتصارهُ مفرغا من البهجة ، ربما لأنه يعرف - تمامًا - معنى أن تخذلك امرأة تحبها ، وساوره خاطر أرغم نفسه على كبحه ، هل كانت

تراسل شعلان أيضًا في أريزونا وتوصيه بارتداء قبعته «المضحكة»؟

- شعلان كاريزما ، هالنوعية من الناس ما يتحملون أي نوع من التهميش ، وقف السيارة . . يله ننزل !

لم يشأ أن ينزل ، شعر بأن الموضوع يشدّه على نحوٍ بعيد ، بأنه ينتبه إلى أشياء كانت أمام عينيه دائمًا ولكنه يراها للمرة الأولى .

- شفيك مشعل؟

- شعلان يقول إنتي ملعونة .

بهتت ، أطلقت عينيها للمدى ، كان بحر ميناء *الشويخ* متراميًا أمامهما في السيارة ، رماديًا ، آسنًا ، صامتًا ، و . . عفنًا !

- يمكن معاه حق؟

شعر بنبرةٍ عميقة من الألم في صوتها .

- لا . .

- أنت شعرّفك؟ إنزل !

فتحت الباب ونزلت بتثاقل ، تبعها على مهل ، لماذا أرادت أن تتوقف في هذا المكان؟ كان عليهما أن ينزلا تلا منخفضًا من الرمل ليبلغا الشاطئ ، بدا له أنها تعرفُ تماما أين تضع قدميها ، وكأنها جاءت إلى هنا مرارًا . . الحقني ! هكذا قالت ، وهي تضع يده على كتفها ، اقشعر جسده ، شعر بكتفها صلبة وصغيرة ، على الرغم من أنه يلمسها من فوق القميص ، إلا أنه ارتبك وتقلصت عضلات بطنه ، مضى خلفها ، يضع قدمه حيثما تضع قدمها ، وشعر بأن الأمر

برمته محض نبوءة ، من يتبع من؟!

- هذا مكاني المفضل . .

- من صجك؟ (سعل) بختنق !

- هذا أحسن مكان في العالم صدقني .

شعر بأنه لا يفهم شيئًا ، لحظة وقفا على بروزٍ رملي يمتد في البحر . . جلست على الأرض وضمّت ركبتيها وسألتهُ :

- شرايك؟

- ما عجبني .

جلس على مضض ، كانت رائحة البيض الفاسد تغمر منخريه ، يشعر برغبة طاغية بالتقيؤ ، جلست إلى جانبه ، كان صدرها الفارع يرتفع وينخفض على إيقاع أنفاسها ، وشعر وهو يتأمل تكور نهديها من تحت القميص بأن أنفاسهُ ثقيلة ، أشاح بعينيه ليحدق في البحر ، كانت أمامه ثلاث سفنٍ ميتة ، صدئة ، غارقة في المياه الضحلة ، جعلت منها النوارس محطات راحة . .

- إذا مشينا قدام شوي نلقى أسراب فلامنغو . .

- ترى إذا تنشقتي هالهوا وايد بتصير فيك أمراض . .

- عادي !

- عن الخرابيط ! (قال ذلك وهو يسعل) أحس إني بستفرغ .

- استفرغ طيب ، شالمشكلة؟ بس حاولْ تفهم . . أحس إني أشوف الدنيا واضحة من هالمكان ، أحس إني ما أخاف لأن كل

الأشياء الكريهة والقبيحة موجودة قدامي على أتم ما يمكن ! كل شي مكشوف يا مشعل . . مافي خديعة . . مافي . .

اعتدلت جالسة وأسبغت عليه نظرات فاحصة ، ابتسما . .

- بشنو تفكر؟

- أفكر إنك مجنونة .

- ما تفكر إني ملعونة؟

إنها تردد ذلك للمرة الثانية ، بدا التأثر واضحًا عليها على الرغم من أنها تصرّ على تكرار ما قال وكأنها تريد قتل التأثير ، قتل الألم ، قتل شعلان ! ثم تمتمت :

- شعلان ذكيْ !

- شعلان ما يعرفك عدل سعاد .

- من صجك؟ شعلان يعرفني أكثر مما تعتقد !

- قط قالك إنه يحبك؟

- لا . .

توترت أعصابها فجأة ، ضغطت رأسها بين يديها وتأوهت .

- بس إنتي ما أذيتي شعلان ، صح سعاد؟

- لا ، ممكن ، ما أدري ! أقصد . . أنا آذيت ناس وايد ، وااايد !

ابتسم ابتسامة العارف ، شعر بجراحهِ القديمة تطفو على السطح . .

- أمس حلمتُ ببحر فيه جثث طافحة ، بس ما كنت خايفة ،

يعني . . ما صحيت فجأة وأنا ألهث مثل ما نشوف في الأفلام . . يمكن ما كان كابوس ، صح؟! أقصد . . أكيد فيه أسوأ !

قالت ذلك وهي تضحك ، ضحكة متشنجة ، ترددت في الفضاء بعد أن ارتطمت بالبنايات الحديثة الخاضعة للبنيان ، بدا وكأن الضحكة تلطم وجهه ، تعود لتغرس أنفاسها في صدرها ، صدرها الذي انتفخ وتشنج على نحوٍ غريب ، كانت محاصرة بنفسها ، وهو أيضا . . كان محاصرًا بها .

شعر بالضياع ، إنها تنعطفُ في أحاديثها بشكلٍ فوضوي ، يكاد يكون عشوائيًا ، تترك المواضيع متجمدة في منتصف الطريق لتشرع أفواه أسئلة أخرى ، فكر بأن عليهِ أن يحمل طوال الأيام القادمة أوراقا وأقلاما لتدوين كل ما يخطر له من أسئلة يريد طرحها ، لأنه لو استمر بسياسة الارتجال هذه سيفشل ، سيصمت كما هو الآن ، يجب أن يعتمد أساليب مختلفة للسيطرة على الموقف ، التخطيط ! هكذا درس في الإدارة ، سيضع خطة دقيقة لا تفوّت قضية واحدة تتعلق بهذه الأنثى ! شعر بها تعود للتمدد على ظهرها ، أقفلت مقلتيها ، بدت في غفوتها الصامتة تلك بريئة على نحو بعيد ، كانت شفتها جافة متشققة ، واشتهى - بإحساس آثم - أن يمسح بإصبعه على شفتيها للحظات . .

- مشعل . .

- نعم .

- تتوقع يتضرر الميناء؟

- ليش؟

- بتصير حرب !

- لا تفكرين وايد بهالموضوع سعاد ، إن شاء الله تعدي على خير .

- تتوقع صج عنده أسلحة دمار شامل؟

- لا إن شاء الله . . من وين له؟ .

- والفلامنغو؟

- خلينا نضمن سلامتنا بالأول .

- مشعل ليش ما تقولي كلام حلو؟

- كلام حلو؟

إنها مشوشة ، تضخ تشويشها في ذهنهِ هو ، يكاد لا يعرف ما تريد ، إنها لا تتحدث وفق منظومة ، ولا تتبع أي اتساق ، إنها . . ثملة! نهضت وجلست قبالته ، قريبة جدًا لدرجة حبس الأنفاس . . سألته بملامح يطفح فوقها القلق :

- تحبني؟

إنها اللحظة الحاسمة ، إنه متأكدٌ الآن بأنها لن تصفعه ! سؤال بقي متدليا أمامه مثل فانوس مكسور صدئ طوال خمس سنوات ، سؤال هائل ولذيذ ومدغدغ للأطراف ، سؤالٌ حبيب !

- أحبكِ سعاد ، أحبكِ !

- صحيح؟

- أحبك أكثر مما تتخيلين . . أحبك أكثر مما تبين !

- أوه !

اتسعت حدقة تلك الابتسامة ، الابتسامة الهائلة فتاكة التأثير التي تجبر الكون على الخرس! ضغطت على أصابعه بيدها علامة العرفان ، كانت يدها صغيرةً ، دافئةً ومفرطة النعومة ، كان يتطلع إلى ما ستقوله وهو يشعر بقلبه يكاد يفلت من صدره ، ولكنها لم تقل شيئًا ، ابتسمت وحسب ، سحب يده من يدها ، أشاح بارتباك ، لماذا لا تقول له شيئًا مماثلاً؟ بدا أنها تقرأ أفكاره لأنها بدأت فجأة تثرثر عن أمور كثيرة : الحرب ، الفلامنغو ، زوجة أبيها ، كان يهز رأسه فقط متظاهرًا بالانتباه وهو يشعر بألمه يذبحه ، الألم الذي رافق أقصى لحظات سعادته للتو ، اللحظة التي صوروها دائما المفصل الأكثر أهمية في جميع قصص الحب في العالم ، لحظة الاعتراف . . لحظة الاعتراف الباهتة ، السخيفة ، الـ . . الدم يتدفق حارًا لزجًا في أذنيه ، يصعد ، يتمدّد ، يغطي يديه بأذنيهِ لكي لا تلاحظ - في انهماكها الثرثار - انمساخه إلى **حمار** . .

الجزء الثاني

المـَــتن

I

الجمعة

٤ أبريل ٢٠٠٣

العاشرة صباحا / من غرفتي

الضوء أكثر مما ينبغي ، أشعر بهشاشة لِزجة .

الحرب ليست قريبة

الحربُ الآن .

أتدري أين المشكلة؟ المشكلة أنني أتذكـــر كل شيء! كل التفاصيل غير الحميمة : القبح والقيء والهراء البشريّ ، أتنشق النتانة المتصاعدة ، رائحة آمالٍ فطست وجثث حمائم متعفنة مركونة في زوايانا القصية ، تلك البعيدة ، تلك الباردة . . إجراءات السلامة تتكرر كالتراتيل المقدسة ، توشوشُ في آذاننا بأن الحياة غالية ، والموت بسيط ! أفكر : إذا قرر الموت أن يجيء فليعضّ على خاصرتي أولاً !

الجدران تخدشني ، أصبح لغرفتي مزاج حاد هذه الأيام ، وكأنها

مرت بألم ما ، أركانها تشبه نتوءاتٍ حادةٍ لإنسانٍ محنط ، إنسان تتفرّع منه أعشابٌ ضارة وامتدادات لحمٍ متيبسٍ بائث ، إنها تعاني مني ، وجهها انتقامٌ صرف .

نزعت ستائري ، سرقتُ منها بعض وجهها ، لا أريد أن يلتصق المكانُ بي أكثر ، وتغور تفاصيله فيّ أكثر ، تدميني أكثر ! إنني أصنع علاقاتٍ مع كلّ شيء ، والأفضل أن أتوقف عن ذلك ، أريد أن أقتل فيّ أي احتمالٍ لأي ضربٍ من الاعتياد ، إذا اكتست الأشياءُ بالملامح صارت أكثر حضورًا ، رعبًا وبهاءً ، أكثر قدرة على غرس أقدامها في بطوننا . .

إنها فاحشة في عريها ، ولكنها لا تبدو بردانة أبدًا ، قسماتها تشي بغرور الفراغ وتبجحه ، مكتبٌ ورفوفٌ فارغة ، دولابٌ يتفسخ الصبغ الأبيضُ عن أقدامه ، حتى السرير قررت أنني لا أحتاجه ، الخواءُ أفضل ، لأن الأشياءَ ما فتئت تطعنني بأظلافها ، تجيء علاقاتٍ لا أستطيع احتمالها ، وستائري الزيتية البغيضة . . كان عليّ أن أنتزعها كي لا أجنّ ! هذا البياض العقيم النهائي أفضل ما يمكن أن أصنعه لأشعر بالقوة ، بقوة الحقيقة ! وطالما أن الحياة هكذا ، لماذا - بحق الله - سأحتفظ بستائري الزيتية؟!

وجدتُ الأمر مزعجًا في الصباح ، ثمة نور باردٌ وشرير ، نورٌ أشقرُ ينهشُ الغرفة ، يتمطى بخبث فوق جثث الوسائد ، نورٌ كثيرٌ وشرس! غطّيتُ الزجاج بالجرائدِ ، لونتُ الوجوه بالأسود ، البشر يضاعفون

اشمئزازي ، بتّ أميل إلى كرههم ، أفعلُ ذلك عن طيب نفس وكأنه حقي المشروع الذي أبرر به حضوري المورق بالزوائد ! أشعر بأن الكره يهبني القوّة الباعثة على الشقاء / الشقاء الباعث على الوجود ، ومع حربٍ كهذه (لا أدري أيّ شيءٍ أصابنا لكي نشتهي حربًا أخرى!) ولكن مع حربٍ كهذه . . ألا يصبح الكره ضربا من الفضيلة؟!

لم نحصل على كمّامات ، لا أدري إن كنا سنموت ، أم أن الأمر سيجري كما تريد تلك الأمريكا ، المراهقة المجنونة . . بجيوب وأثداء منتفخة ، لا احتمال يرجح على آخر ، هذا أفضل ، تساوي الفرص يوفّر عليك عناء اقتراف فعل ، إننا بحاجة إلى مزيدٍ من الانقراض ، أعرف بأنك ستجادل حول عدالة ما يجري ، ولكن حتى إذا جاءت هذه الحرب مظللة بمسميات نبيلة مثل تحرير العراق فستمرّ قطعًا بالنفق المظلم والرطب للقتل ، سيكون ثمة جثث للأطفال هنا وهناك ، ولاحقًا عندما تنتفُ أمريكا بملقطها الذهبي صدّام حسين ، سيظنّ العالم بأن الأمر مبرر وجدير .

ستقول بأنه ما من خيارٍ آخر ، وسأنكّس رأسي أمامك كما أنا دائمًا ، إنني - مرة أخرى - **لا أدري** ، أشعر فقط بأن العالم ضيّق الأفق ومتطرّف . . كنا نثرثر ، (لا أدري لماذا كنا نفعل ذلك) ولكن كان ثمة لحظات تفلت من أيدينا من هذا النوع الرخيص ، حدث أننا تجادلنا ، أذكر الآن ما قلته : (أنتِ سياسية غبية) ثمّ قبلتني على أنفي وأضفت (ولهذا أثق بكِ) ، والآن . . مع هذه الولولات المجنونة لصافرةِ

إنذار وهمية ، أتساءل : لماذا أنت حمارٌ هكذا؟

أتخيل أنك تضحك ، عندما يعلو صوت الصافرة ، كعجوز تنوحُ في جنازة ، أضغط أذنيّ بيديّ وأسمعك تضحك ، ومتأكدة بأنك - غير آبه بإرشادات الابتعاد عن النوافذ - تطل على الخواء الفجائي للشوارع من محلّ الزهور الذي تملكه ، تشفط أنفاس سيجارتك ولا تملكُ حتى الرغبة في التساؤل عما يجري ، وأمامك بالضبط منزلٌ صنع من حجرٍ أصفر موشى بالقرميد النحاسي تقف أمامه سيارة جاغوار خضراء ، إن كل ما تفكر فيه هو أنها ستكون خسارة حقيقية لو تهدم هذا المنظر ، لأنك كما الحمقى عندما نشير لهم إلى القمر ينظرون إلى طرف الإصبع . .

يا ربي !

أعرف الآن كم أنا باسلة في الإخلاص للعادة ، هذه الثرثرات التي أفضّها بيني وبيني ، في المرايا والباصات والممرات الصامتة . . تشي بامتدادك في داخلي ، ربما كان الأمر لا يهمّك ، وقد لا تتأثر لما أقوله أو تُقذَف في دمك دفقة من الأدرينالين تجعلك تهتفُ باسمي في ابتهالٍ سرّي ، قد لا تصاب بالحنين أو بأدنى ضروب الاشتهاء ! أعرف تمامًا ما لن يحدث . . كل شيء حدث من قبل ، وهذا جيد ، لا أشتاقُك ، ولكنني أفتقدك على مضض ، الالتصاقُ الحميمُ الذي كنا عليه يجعلُ لحياتي من بعدك مذاقا غريبا ، أبيض وموحشًا ، موحشًا جدا . . نعم ! لهذا السبب اخترعتُ مشعل !! إنني أستخدم سياستك القذرة لأنها كل ما أعرفهُ . . وشكرًا !

II

الجمعة

٤ نيسان ٢٠٠٣

الثانية عشر ظهرًا / من غرفتي أيضًا

======

======[(٢)]

. . . لم أكن أعبث ، كنت أرغب حقيقة بالزواج منه ، طيب! ثمة أسباب كثيرة يمكن العثور عليها لتبريرِ أشد الأفعال حماقة ، أذكر أنه في المرة الأولى التي سألني فيها عن السبب ، أخبرته بأنني لا أستطيع السفر إلا مع زوج لأن أبي لن يسمح لي ، وأخبرته بأن الشمطاء لا تسمح بتربية القطط ، أذكر أنني قلت أشياء ما كان يجدر بي قولها ، لا أدري ، أشعر الآن بأنني لا أستطيع تحمّله ، وبأنني قد زججت بنفسي في مشروع ارتباط مفتعل ، بوسعي - كما أسلفت - أن أعثر على مبرراتٍ مقنعة ، وأن أصب جل لعناتي على الحياة غير

---

(٢) كلامٌ مشطوب وغير واضح .

العادلة ، بوسعي أن أكون الضحية دائمًا ، وبالمناسبة . . ليس ثمة أسهل ! فكّر أولاً بأنه مغرمٌ بي ، وأنا أحتاج إلى رجل بوسعه أن يقبَل بي كما أنا ، بكل قبح وشناعة ، على خلافك بالضبط ! رجل يشتهيني دون أن يسبغ عليّ رتوشًا ترضي ذكوريته ، إنني واسعة وكثيرة ولا أحتاج إلى رجلٍ يشكلني لأجيء كما يشتهي ، أريد أن يحبني حتى عندما أصرخ ، أعني أجأر وأصدر تلك الأصوات الحيوانية التي تكره ، وعندما أمسح أنفي بكمّي . . أريده أن يحبني أيضًا ، وأن أستطيع أن أخبره بكل أريحية بأنني بحاجة للذهاب إلى صالون نسائي لأملّس شعري ، دون أن أفعل ذلك بالسر ليقتنع بكذبة طريفة اسمها (جمالٌ ربّاني)! ، أريد أن أبدو أنا ، أن يحبني أنا ، حتى عندما ينتأ دملٌ أعلى شفتيّ فإنه يحبني لأنني أنا ، أنا لا أحتقر جسدي ولا ألغي مزاجيته ، الدمامل لا تنتأ عبثًا ، لهذا السبب أريد أن أكون كما أنا ، حدّثتك من قبل عن أفكارٍ كهذه وكنت تكتفي بأن تبتسم وتترك أصابعك تتخلل شعري ، كما لو أنك تداعب طفلة تتعلم النطق لتوّها ، كنتَ تردد كشأنك (مجنونة) ، الغريبُ في الأمر أنني كنتُ أنتشي وأتضخم ، كنتُ سعيدة ، حسنًا . . إنها المرة الأولى التي أبدأ فيها في لومك أنت ، أبدأ فيها بتحليل ما حدث والكيفية التي انفطرنا فيها ، أبدأ فيها في تبرير وجود مشعل في حياتي .

هل تفكر الآن بأنني ساقطة؟ فكر إذًا بأنه ثري! وبوسعه أن يأخذني إلى بلدان كثيرة ، عندما أمشي كل يوم على كورنيش الخليج

أو أمرق في السوق - متأففة ومورقة بالشتائم - لا أرى إلا شيئا واحدًا ، أنني أريد مغادرة هذا المكان ، لا أستطيع التفكير بشيء آخر ، إنني لم أعد قادرة على تحمّل الوطن بعد أن التحمت صورته بك ، خاصة عندما تلاحقني سيارة حمراء مكشوفة ، بورش أو غثاء آخر ، أرغب بالهجرة إلى مكان أقل ! أشعر بأن العمى يُسيطر على كل شيء هنا ، بأن هذا المكان بلهاثه المحموم نحو الألوان المحرّمة والثمار المحرّمة والغثاء المحرّم ، يجنح إلى أمواج لا أشتهيها ، آخر موجة كانت حربًا ، يا للعظمة! أنا لا أشبه هذا المكان ، أريد أن أنزلق خارجه في ولادةٍ جديدة . . أتخيل إصبعك الطويلة تضغط أرنبة أنفي : (لستِ كما تقولين) ، ولعلّك على حق ، تريدُ رأيا آخر؟ إن الهرب هو الشيء الوحيد الذي يمكن به أن أكذب على نفسي بكوني سأجد مكانا أستطيع أن أنتمي إليه كاملة ، إن الهرب هو كذبتي الحبيبة ، فكر كم من الأكاذيب صدقت على مر الزمن ، ماذا لو كانت هذه واحدة منها؟ إنني أضرب الأرض برجلي وألح (أريد أن أسافر ! أريد أن أسافر !) لأنني أكرهك في الكويت بأسرها . . وبوسعك الآن أن تبتسم راضيًا عن صدقي .

في ذلك اليوم ، عندما لمحت مشعل صدفة في الكلية ، كان ينزل الدرج الذي أصعده ، وبرق أمامي شريط سنوات خمس أخيرة ، كنتُ فيها بكل جدارة المعشوقة الجبارة ، خطر لي أنه يمكن أن . . لا أدري ، كان وسيما بالمناسبة ! هل للأمر علاقة؟ خطر لي أنني أريده ، أريد

شيئا أكثر من السفر خارجًا ، أكثر من الهرب ، أريد شيئا لم يكن بوسعِك منحي إياه ، عندما يزج بك القدر في مكان لا يشبهك ستحاول أن تذيب نفسك بكامل تفاصيلك وحماقاتك في هذا المكان ، كنتُ أحاول أن أندمج لمرة في مجتمعي من خلاله هو ، لأنه بدا دائما متصالحا مع المألوف ، إنه من الصنف الذي يواكب شهوة الاعتياد ، عندما أطرح عليه سؤالا أقسمُ في داخلي بأنه سيردّ عليّ بكذا ، وأنه بعدها سيقول كذا ، حتى أساليب إلقاء التحية نالها التعليب ، في كل لقاء كنتُ أعقد رهانا بيني وبيني وأفوز دائمًا ، وأشعر بي أغوص في عتمةٍ باردة ، هذا الفتى الساذج . . هو ما ظننت أنني أحتاج إليه لكي أنتمي! إنه ببساطة جهدٌ معاكسٌ لكل تلك الجهود التي بذلتها (أنت) لكي تضاعف من انسلاخي ، عزلتي وبربريّتي ، وكأنني أجيئه ركضًا وأتوسل إليه أن يفعل بي ما فعلته أنت ولكن بالعكس ، أن يخبرني بأن الحياة - بهذا الشكل المسطح - جميلةٌ وجديرة ، وأن يقول أشياء تبدو ذات معنى . . حول الولاء للوطن ، والمسئولية الإنسانية ، وحب الناس ، وحفلات الباربكيو . .

. . الكوابيس بالتأكيد الكوابيس لا تتركني وشأني ، وأنا ، أعترف على مضض ، أخشاها! تعبت من التعفن في مكانٍ سديمي ، والسقوط في فوهة الضوء اللازب ، عوضًا عن الأمكنة المربعة ، تلك التي أرى أن عليّ مغادرتها ، مدرسة ، جامعة ، بيت ، إصلاحية ،

سجن ، أو حتى مجمع تجاري ، أمكنة مربعة وينبغي أن أغادرها لأنني . . سأختنق ! تعرف بأنني فاشلة في صبِّ نفسي داخل براويز مهما جاءت أنيقة ، كنتُ دائما متحركة أكثر مما يمكن أن تستوعب نواميس الأمكنة والأزمنة ، كنتُ أتحرك خارج تلك المنظومة *الزمكانية* البليدة ، ليس عن رغبة ، لكن الأمور تجري هكذا ببساطة ، ببساطة المطر ! مضحك أن أضرب مثالا بالشيء الأكثر ندرة في الوطن ، أريد أن أعيش في مكانٍ تمطر فيه السماء غالبًا ، تبًا . . إنني أنساب مرة أخرى خارج ما أود قوله ، أليست هذه عادتك؟ دغدغ في صدرك نشوة الانتصار لأنني من بعدك كما أنا منذك . . والآن ، الكوابيس ! إني أراني أمشي حافية في بحر ترتع فيه القباقب وأسماك بأشواك ، وفيه ثلاث سفن ميتة ، قباقب تهز مقصاتها المدببة في الهواء وتتوعدني بقرصِ قدميّ ، إني أراني ممددة أمام امرأة ترتدي حجابا أبيض طويلاً ، وتدسّ القطن الأبيض في منخريّ وأصرخ لأخبرها بأنني لم أمت ، ولكن صوتي لا يجيء أبدًا ، لا بدّ من انتهاكٍ فادح إذا ، كيف أشرح الأمر؟ هو كما يصادفك أثناء القيادة ، أن تذهب بعيدا مع أفكارك ثم تفاجأ بك موشك على الاصطدام بمؤخرة نتنة لشاحنة؟ كل ما ستفعله وقتها هو انعطافٌ صارخ عن الجادة ، طبعا سيتأفف آخرون أغبياء يحسبون أنفسهم أكثر قدرة منك على القيادة ، ولكن من سيعبأ بهم؟ ليأخذهم الشيطان . . هذا ما فعلته أنا ، لقد غيّرت الجادة قبل أن أموت بأشلاء ملتصقة بمؤخرة شاحنة نتنة . . هل كانت تلك الشاحنة

هي أنت؟ أجزم - على الأقل - بأن لك الرائحة نفسها . .

حسنًا ، ألم نصل إلى منظومة غير مترابطة من الأسباب المقنعة؟ الكوابيس والانتماء والمال . . والسفر ، الذي يبدو السبب الأكثر سطحية ، ولكن ، لو أننا أتقنا مزيدا من الإنصات ! عندما يحدث أن أجالس مجموعة فتيات في كافتيريا الجامعة يبدأن في الحكي عن مشروع الدراسة في الخارج ، ثم تغمر المرارة وجوههن المطلية بالمساحيق حتى تجرؤ إحداهن على أن تقول ضاحكة (لنعثر على رجلٍ يتزوجنا ويمضي بنا إلى الخارج ثم . . يقوم بتطليقنا!) وتترجرج في أنحاء المكان ضحكات عملاقة ، إن ما يقال في تلك المجالس العابرة من باب المداعبة واقعيٌّ جدا ، ولذا أعتقد بأنه ينبغي على الأنثى (الذكية) أن تعثر على الرجل الذي تتطابق رغبتها مع رغبته ، أو تستطيع إملاء رغبتها عليه لكي تتمكن من النفاذ إلى جغرافيا جديدة ، هذا ما حدث فعلاً ، كان هذا الرجل هو مشعل! إذ ليس ثمة حل جذري ولا موقف يمكن اتخاذه دون نتائج وخيمة ، ولا أنوي بأي شكل أن أحرق مشدّ صدري في مظاهرة نسائية ، أو أن أتردد ككومة أنفاس نتنة في جمعيات حقوق المرأة ، وأصبح حديثا يتجاذبه الأوغادُ في الدواوين ، لذا ينبغي على الأنثى (الذكية) أن تعثر لنفسها على مخارج طوارئ شبيهة ، كأن تلقي بثقلها على عاشق انتظرها لخمس سنوات وفي جيبها قائمة من الرغبات التي سيفعل أي شيء في سبيل تحقيقها ، النساء يحكمن العالم . . أيها السذج! ولكن أنا لست شيطانة

لهذه الدرجة ! أعني . . أنا أيضا أريد رجلا يحميني ، وطفلاً أغير حفاظاته ، وبيتًا خاصًا بي لا تغير أثاثه شمطاء أبي ، أ رأيت؟ يمكنك دائما أن تكون الضحية !

كل هذه الأشياء قذفت فيّ لحظة صادفته على الدرج وتمخضت قرارا سريعًا ، كان علي أن أوقفه بطريقة ما ، ولكنه عبر بسرعة مضحكة ، ألقيت بقلمي متأملة أن يلتقطه ، ولكنه كان أكثر خوفًا من أن يلتفت ، لقد سرني أنه ما زال رعديدًا! أسرعت إلى مختبر الكمبيوتر وأرسلت إليه على عنوانه الإلكتروني «المنطقة الحرة ، مقهى بارنيز ، الساعة الرابعة عصرا» ، ولم تساورني الشكوك في كونه سيأتي زحفًا على رموشه ، ولكنني استسهلتُ الأمر أكثر مما ينبغي كما يبدو ، فقد كان الخوف موجودًا في عينيه على الدوام ، وقد كنتُ راغبة بسماع وعودٍ فورية على شاكلة (سأسافر بك إلى المكان الذي تريدين ، وعندما تحلمين بشيء مرعب سأحتضنكِ بقوة !) كنتُ أرغب بسماعِ أشياءَ كهذه ، وعندما لم ينبس بأي منها - على الرغم من أنني رأيتَ حبه يجأر في عينيه صراحة - قررتُ . . أن أنسى الأمر ، كنتُ أغادرُ المقهى وأنا أشعر على نحو غريب بأنها البداية فقط ، وأن هذا الاندفاع الفجائي نحو مشعل سيكون له نتائج أخرى ، والآن . . ألا يسبب غناء الأطفال لك الصداع؟!

(٣) كنت ساخطة قبل أيام لأنهم انتزعوني من وجبة الماك رويال في كافتيريا الكلية من أجل التفرج على تجربة إخلاء وهمية ممعنة في الفكاهة ، لاسيما بالنسبة للوجوه الهندية الملطخة بالصلصة الحمراء وأصوات الصراخ الموغلة في المبالغة . . و . . هل ترى كم الأمر صعب؟ الصمت السميك المستميت بعد كل الكلمات التي فجرناها؟ اللعنة !

ماذا سيحدث لسرب الفلامنغو؟ لا مبرر لموتهم ، أعني . . ليس بالقياس إلينا ، نحن المخلوقات النبيلة التي قطعت شوطًا كافيًا في الإيذاء ، على فكرة أنا لا أستثني نفسي من هذا الحشد ، وهم - من عليائهم - ما فتئوا يشحنون الأجواء بالغناءِ كي نجيء - في فترة

---

(٣) بدأت الفقرة من صفحة جديدة تماما ، على الرغم من أننا نعتقد بأنها كتبت في اليوم نفسه وفي الوقت نفسه ، وعزونا تركها لنصف الصفحة السابقة فارغا لأسباب مزاجية (الراوي) .

عصيبة كهذه - مهيّئين للتفرج على القتلِ ومؤمنين به! مشعل مرعوبٌ من أفكاري ، لم أعد أطلعه عليها ، إنني أشبه بكتلة مهترئة من الغثيان ، هل أخبرتك بأنني انزلقتُ في الحمّام مساء الأمس وأن بقعةً كحلية تلطّخ فخذي الأيسر؟ كان وقوعًا سينمائيًا ومؤلمًا ، لم أخبر أحدًا عنه ، إنني أمنحك بعض الامتيازات على سبيل الصدقة .

أشعر نحوك بغرابة ، لا أرغب بشتمك ، تلك الشتائم التي كنتَ تردد بأنها تكسر الظهر ، على الرغم من أنك من علمني إياها ، لتجعل جسدك يقشعرّ كما لو أن خيطا من الماء البارد يُدلق فوقك ، لم أعد راغبة بها ، وفي الوقت ذاته - بقدر امتداد التوق بين حدقتي عينيّ الذابلتين - أجدني آسنةً جدًا ، وأشعر مع كل لحظة بأنني أشيخ وأترهّل . .

/// (٤)

(٤) ضربات غاضبة بالقلم في طرف الورقة (الراوي) .

III

الجمعة

٤ أبريل ٢٠٠٣

الساعة السابعة مساءً

يبدو أن جوقة الأطفال التي تغني قد فعلت فعلها في شحذ حماسة الناس ، مشعل يردّد طوالَ الوقت (وطني حبيبي وطني الغالي!) كما لو أن مؤخرته قد علقت في تلك الديباجة ، وأسأله . . هل أنت فخور بكونك كويتيًا يا صغيري؟ ليردّ بحماسته الطفلة (طبعًا!) وأتساءل : ماذا يعني أن نفخر بما لا فضل لنا فيه؟ ويتلعثم : البشر ميّالون إلى التميّز بطبيعتهم ! ولكن : ألا يمكنه أن يتميز بشيءٍ أكثر جدوى؟! لم أسأله !

إنني أقحم نفسي في مشاكلَ لزجة ، أنا متورطة ، أحاولُ أن لا أفكر بما فعلته ، أفكّر بأشياء أصغر ، كأن أشعر بالخسارة لمكوثي الطويل

في المنزل ، يقولون بأن البرد ليس في صالحنا لو استخدم أسلحة كيماوية ، حتى عندما نطفئ المكيّفات يتسلل الهواء الشفيف إلى عظامي مدغدغا مثل مغازلٍ عنيد ، إنه يناديني . . الخارج ، الموتُ يأتي من الخارج ، والنداءات السماوية ، كل شيء ذو معنى يأتي من الخارج ، ولكنه قدرك أن تتخثر في غثائك وتردد أغنيات الأطفال حتى يتفسخ جلدك . .

المكان يشبه نفسه قبل ثلاث عشرة سنة ، علامات (X) مرصوصة على النوافذ بالأشرطة اللاصقة ، تسحبني من أذني إلى مناطق خلتها انقرضت ، مزيد من العبث وتتحول العلامات إلى لا . . لا خافتة ومنفية في عيون الأطفال ! مزيدٌ آخر من العبث وتتحول إلى نجوم ، إخطبوطات . .

اللهم طولك يا روح !
خلاااااااااص(٥)

لا أستطيع أن أفلت ، إنه يتصل بين دقيقة وأخرى ، وعندما لا يتصل فهو يبعث رسائل بالموبايل! متعبة؟ متعبة ! تقيّأتُ مرتيْن فقط ، دم؟ لا . . فيمتو ! جيّد ! نامي . . لا أريد ، أغني لكِ؟ غنّ لي ،

---

(٥) الظنون الراجحة تشير إلى أنها (شخبطات) اقترفتها أثناء اتصالٍ من مشعل قاطع انغماسها في الكتابة .

وطني حبيبي . . وطني *الغالي* ، الخوف يجيء من كل مكان إلا من فتى يغني لحبيبته كي يطرد عنها الكوابيس القديمة ، وشايات لذاكرة مخرومة بالرصاص ، وأصوات المدافع تصدح كل فجرٍ مع مطر أسود وطرقات لحوح على باب السماء تجيء . . الله أكبر ! ما زالت تفاصيل الأشهر السبعة مصلوبةً فيّ ، هل تتصور إمكانية للعثور على الأسرى إذا انتهت الحرب قبل أن ننتهي نحن؟ سيكون ذلك عظيمًا ، تحدثنا عنها أحيانًا ، أعني الحرب ، كنت تقول بأن لها تأثيرها السافر عليّ ، أعرف بأنني - رغما عني - أجيء حربًا لا سلمًا ، لأني تشرّبت دخانها جيدًا ، هل حدثتك عنه مرة؟ **الموتُ الأول في حياتي** ، الجثة التي سبقت أمي بعامين ، كانت معلّقة بعامود إنارة الشارع ، ببطنٍ منتفخة تحتفل به جوقة بلهاء من الذباب ، وتبدو من بعيد مثل ربطةِ عنقٍ غير أنيقة لعامود الإنارة ، كان المشهد الأكثر إثارة بين نقاط السيطرة والسماء الرمادية و«الهوسات» الكثيرة و . . لا أحد يجهل التفاصيل ، كان أمام منزلنا بالضبط ، منزلنا الصغير في *صباح السالم* ، وكنتُ أتفرّجُ عليه كل يوم وأتساءل إن كان يتمنى أن تباد تلك الذبابات بمبيد أو ما شابه . .

IX

السّبت

٥ أبريل ٢٠٠٣

الساعة الخامسة مساءً

بالأمس صدر قرارٌ بوقف الدراسة لأسبوع ، الأجواء مشحونة ضدّنا ، يبدو أن كل الفضائيات العربية تكرهنا ، الناس في الخارج يتحدثون عنا كوباء ، ولكن الشبابيك لم تعد ترعبنا ، أفكر بأمي ، أحاول أن أخفي تأثري ، عندما تتكور أختي في حضن أمها وتمص إصبعها ، من الصعب أن أفكر بأنني لا أختلف عن غيري بعد كل هذه السنين ، أنني أفكّر بأمي ! إنني لم أفعل في حياتي شيئا كهذا أبدًا ، لم أفكر بها ، ولم أمص إصبعي أيضًا ، كنت أمضغ الرمل وأعلكُ الجريد وأمصمص الحصى الملونة والأزرار ، إنني لا أعرف حتى أي شيءٍ كنته في طفولتي ، كل ما أعرفه أنني لم أكن راغبة بأن

أكون ، ولم أندم على موقفي هذا طوال حياتي ، خاصة الآن . .

عندما حبلت بي أمي لم أرغب بمغادرة بطنها ، وأي أحمق سيرغب بذلك؟ لم أكن بالغباء ذاته ، تكوّرت هناك ببساطة وتركت العالم يقلقُ عليّ بقدر ما أستطيع ، انقضت فترة الحمل وأنا ما أزال راكدة تمامًا ، رافضة الإدلاء بإشارة حول موعد الوضع ، حتى تدخل أبي بعنجهية وأخذ أمي إلى البحر وأجبرها على المشي ، أخبرته عجوز فضولية بأن المشي يحرّض على الولادة ، كانت تمشي متثاقلة وتغوص قدماها في الرمل في كل خطوة لتخرجهما بصعوبة ، والكرة في بطنها / أنا تتطوّح يمينا ويسارًا ، جعلها تمشي لأربع ساعات فيما تمدد على الشاطئ وراح يمصمص الفستق ويقشر البرتقال ، كان ذلك في أول أكتوبر ، وكان الجو خانقًا وكريهًا ، وكان العرق يغطي كل جزء منهما ، حتى عندما حان وقت عودتهما إلى البيت كان يوقف سيارته في عرض الطريق فجأة ليبتعد عنها لأمتار ويجبرها أن تجيئه مشيا ، استمر في تعذيبها بهذه الصورة حتى وصلا المنزل ، كانت منهكة ، ما لبثت أن ألقت بجسدها على السرير ، أستطيع تخيل الموقف ، كان السرير يئز بوجع ، يصدر أصواتًا بدت وكأنها تصدر منها بالذات ، في تلك اللحظة كانت آلام الوضع قد بدأت تعصر عضلات حوضها . . هكذا أجبرتُ على الخروج ، تعسرت ولادتي لتسع ساعات لأنني لم أكن موافقة على هذا القرار التعسفي ، وكدت أموتَ لأن الحبل السري كان ملفوفا حول عنقي مثل حبل مشنقة ، صممت على البقاء هناك ،

ولكنهم أخرجوني ، إنني لم أرغب قط بأن أكون ، **العالم هو الذي أرادني** ، من البادئ إذًا؟!

لا أحتمل ذاكرتي ، لا يسعني التذكر غالبًا ، ليس تكتمًا ولا تحفظًا بقدرِ ما هو انقطاعٌ بين الأزمنة ، عندما أفقدُ فجأةً إحساسي بالماضي وتغمر الذاكرة موجة زبدٍ بيضاء ، تقتل الأصوات والروائح ، وكأنني لا أعرفني ، أتشيّأ ، لا أذكر الكثير عني إلا في حالاتٍ نادرة هي أقرب إلى ضروب التجلي ، عندما تفتح فيّ نافذةٌ ما وأرى مشاهد ما كنتُ على علمٍ بوجودها أصلا ، لحظتها . . أشعر بأنني قادرة على التوحّدِ بي ، وأشعر بي قادرة على أن أمسكَ بيدي وأنا طفلة وأن ألعب معي ، أن أتحول إلى امرأةٍ كثيرةٍ جدًا ، نساء بعدد أيامي ، كل واحدة تمسكُ بالأخرى في حالةٍ غريبة من التراكم لتتمخض عما أسميه : (أنا) ، إن الذين يزعمون بأن الأيام كائنات زائلة سذّجٌ جدًا ، وحدنا نزولُ ، نترهلُ ونفنى . . ولكن الأيام حية ، تغفو في أعماقنا وتهبنا إضاءاتٍ غامضة للمضي ، إنني في النهاية ماضيٌّ الحيّ ، ولا أنكر أن لي جُذورًا في مناطق كريهة ، إنني بقدر ما أرغب بالتملص من الماضي أعرفُ بأن ذلك مستحيل وأكفُّ . . أنا - ببساطة - كومةٌ قديمة مني .

أنصت إليّ مشعل بوجهٍ شاحب ، مُصمتٌ كوجوه التماثيل ، فيه مسحةٌ من الخوف ، ليس ثمة وجه تسهل قراءته كوجهه (هل يعقل أنها جُنّت؟!) لأن كل شيء يصبّ خارج الدارجِ من القول هو ضرب

من الهرطقة ، إنني أعي - إلى حدٍ ما - أن كل ما أقوله هرطقة ، ألا تعجبك موسيقى هذه الكلمة؟ هرطقة ! هرطقة ! إنها تجعلني أبتسم .

جلسنا على الشاطئ ، متلاصقين بتكاتف ، مثل زميليّ عمل ، كلانا يحاول مجتهدا أن ينجح هذا الشيء المفتعل بيننا ، لعلنا لا نشترك إلا في هذه الرغبة ، إنني سعيدة لأن كلاً منا يجاهد ليصنع من غبائه مجدًا أو حبًا! كلانا متعبٌ من الآخر ويحاولُ أن يجعل في الآخر خلاصه ، كوننا لا نريد استئناف أي تجربة جديدة ، ستكون شيئا أكبر من قدرتنا على العطاء ، وحتى الأخذ .

كان *القصّيع* يقرصُ فخذي ، البحر عفن ومشعل يغطي وجهه بشماغ أحمر ويتوسل بصمتهِ أن نغادر ولكنني . . علِقت ! علقتُ للحظة ، وكأن ثمة من يتشبث بي من أعماق الأرض ، كان ثمة أيادٍ هزيلة ونافرة العروق تجرني إلى مكانٍ ما ، أليف وموحش ، أفكّ أزرار قميصي وأختنق إذ أنا أطالع أيامًا لم أعرف بحدوثها حتى ، كنتُ أبصر فيما وراء البحرِ المتعفن الآسن . . طفولتي ، عزفتُ عن الكلام ، ويبدو أنني كنتُ في وسط عبارةٍ ما ، لأنه ظلٌ يبحلقُ بذعرٍ ثم أخذَ يهزّني ويُثرثر : سعاد ! شفيك؟ ردّي علي ! تعبانة؟ يصرّ على اقتحامي عندما أقرر أن أنطفئ ، وعندما رحت - كعادتي - ألفظ من معدتي دمًا (هل أخبرتك بأنني أعاني من ارتخاءٍ في المريء؟) انطلق باتجاه مقهى بارنيز ليحضر زجاجة ماء ، كان القصيّع قد التصق بفخذي وكأنني أصبحت جزءاً من المكان ، وكأن الأرض تعض

جسدي / تناديني ، كيف أفسّر الأمر؟ كانت نزلة صمت موحشة ، عودةً مدوية إلى الطفولة ، وكأنني أتقمصني ، أكونني سابقًا وأعود بي قديمة وصغيرة وضعيفة ، حيث العالم يتحوّل إلى مكان مطلق الجدة ، وكأن حواسّي تتفتح للمرة الأولى ، والأشياء لما تصطبغ بأسمائها وتهجر الحياد ، كنت أعود إليّ ، أكتشفني برعبٍ ، أعرفُ الآن بأنني أخافُ مني . . كلّ شيء بدا مرئيًا وغير ملموس في الوقتِ ذاته ، إنني أقذف في اتجاهات متضادة ، أتأرجحُ بين عالمين ، بين زمنين ، بيني وبيني . . وأنواتٍ أُخر تنتأ برؤوسها الصغيرة الملأى بالصديد والقيح ، أطفر من مسامي وأقشع غشاوة الذاكرة ، كل شيء واضح ، من أين جاء كل هذا الماضي؟ كنت أتعمّد في العتمةِ بداخلي وأتكوّر مثل دمعةٍ متقنة .

كنتُ طفلةً صامتة بشكل مطبق ، حتى إنني عندما أتكلم - ونادرًا ما يحدث - يضحك الناس ، لأن صوتي ليس من الأصوات التي اعتادوا سماعها ، كوني لم أنتمِ إليهم أبدًا ، ولم أتلطخ بغواية الأمكنة ، يبدو صوتي وكأنه صادرٌ من مكانٍ ما خلفي ، ويخيل إليهم بأنه لو توقفت شفتي عن الحراك فسيظل الصوتُ الكاذب يُسمع لأنه . . لا يمكن أن يكون لي أبدًا .

ذلك الشواش في صوتي أنصتَّ إليه بكل حواسك . . قلتَ أشياء غريبة : صوتكِ فوضى متقنة ، كنتُ أنتشي ، أنتشي ! ياله . . أشعر بأن هناك مخلوقات ما ورائية مفوضة بأن تخبئ أصواتَ العالم في

حنجرتي ، أصوات تعرج من الأرض وأخرى تهبط من السماء ، تجيء من حفرِ الرملِ والمطرِ والعصافيرِ والكلابِ والعلبِ الصدئة وشاحناتِ القمامةِ . . أخبئ صوتي كشيءٍ مخيف / أثيرٍ وكأنه سينفد ، ولأنه كان خارج نطاق تحكمي ، بدأت أتعامل معه مثل كائنٍ مستقل ، له كامل الحق في ممارسة مزاجيته ، مثل صديقٍ يعرفني ويعبر عني كما يقدّر هو الموقف ، ولكنهُ صديقٌ صامتٌ في الغالب ، كان اليوم يمر دون أن أنطق بكلمة ، خفتُ من الكلام ، كنت أشعر بأنني أتبدد معه في الهواء ، كنتُ أخاف من ضياعي مع ما أقول ، تماما كما يحدث عندما تنسى زجاجة الكحول مفتوحة ، لم تكن الأصوات - على الرغم من غوايتها - تمنحني أمنًا ، كانت الرعب بعينه ، وكنتُ أفضّل - عوضًا عن التعاطي معها بالسهولة التي يفعل بها الجميع - أن أدوّن وأؤرخ ، أن أكتب ! أن أحول الكلام إلى نص ، أو سر ، أو صمت ، شيءٌ يتراكم فيّ ويبقى حيًا ويمنحني فوهات مضيئة في الأنفاق المظلمة . . لم أكن أثق بالآخرين ، وكان الكلام ضربًا من المشاركة التي رفضتها لفرط ما أتحاشاهم ، لم أكن لأمد لهم ذلك الجسر الأثير ، اللغة ، لم أكن أريدهم في عالمي ، ولا أريد للغتي أن تتلوث بهم .

كانت أمي مرعوبة من صمتي / تجثو بين ركبتي وتصيحُ وتلطم وجهها ، وتتوسل للعفاريت التي تسكنني بأن ترحل . . عندما تفعل شيئا كهذا كنت أتكلّم ، كأن أخبرها مثلاً بأنني أريد أن أتذوق قطعة أخرى من مكعبات السكر . . عندما أقول أشياء كهذه تكفكفُ

دموعها وتحضر لي ما أريد ، تقرّ للحظة ، لتعاود القلق بعد حين .

لم أملك قط القدرة على مواكبة ما يقال ، لم أكن أقول أشياء مثل (اشتقتُ لكِ ، أشعر بالبرد ، احمليني ، أريد هذا الفستان) ، لم أستطع قول أشياء كهذه ، ولم أكن أرد على ما يوجه لي من كلام بالطريقة الصحيحة ، كنتُ أقبضُ على عباءتها وأمشي خلفها ، وعندما تداعبني إحدى صديقاتها وتسألني (كيف حالكِ يا حلوة!) كنت أردّ . . يوجد نملة مهروسة تحت كأس العصير ، مثلاً ! كانوا يضحكون / يضحكون لفرط ما لم يتوقعوا ردودًا كهذه ويعلّقون (إنها نبيهة) ويبطنون (إنها معتوهة) .

عندما كانت تسألني تلك الأسئلة اليومية ، هل تغدّيتِ (مثلا) كنت أومئ بالجواب ، وكأنما هذا الضرب من البداهة يتنافى مع حقيقتي ، الآن . . من العجيب أن أقول ذلك ، ولكنني أتمنى لو أنني خضتُ معها بعض الحوارات ، أشياء أتذكرها في وقتٍ كهذا ، تتكور فيه أختي في حضن أمها لأن حربًا مجنونة تجري في الخارج .

إنني أدفع ثمن تلك الأيام بأن أصبحت ثرثارة حقيقية بالترّهات .

بدأت أمي تبحث عن تفسيرات *(ربما تكون مصابة بالتوحد ، إنها بليدة قليلاً ، إنها غريبة وتخيفني ، إنها تنظر إلي كما تنظر إلى بقية الأشياء ، مثل الأكل والفراش والملابس ، إنني لا أشعر أبدًا بأنها ابنتي ، ربما أخطأت الممرضة في المستشفى في إعطائي الطفلة*

الصحيحة . .) ولاحقًا أخذتني إلى عيادات لإجراء اختبارات ذكاء ، بدأ الجميع بعدها يشجع فكرة أنني أحتاج نوعًا خاصًا من التعليم ، إنني لم أعرف قط نتيجة تلك الاختبارات ، جدتي وحدها رفضت الأمر صارخةً في وجه أمي «**يا غبية ! ما تشوفين؟! عيونها تلمع ! تلمع !**» ، لم تفهم أمي ما قصدته جدتي ، سرعان ما أضافت « ناس بلا بصر ولا بصيرة . . الحمد لله والشكر!» كان ذلك الحديث يدور في وقتٍ كنت فيه منشغلة بنتف جناحي بعوضة ، مختبئة خلف الستارة البيضاء الشفافة التي تفوح منها رائحة الغبار ، عندما كانت جدتي تردد تعويذتها تلك (تلمع / تلمع !) ، كنت أهرس البعوضة بين إصبعيّ وأنتشي لفرقعة أعضائها . . كنتُ أقتل !

كانت جدتي تقدّس البريق في عينيّ ، وعرفت بأنه شيءٌ شديد الخصوصية بالنسبة لها دون أن أفقه لذلك سببًا ، لا سبب سوى أن جدتي تعتقد بالأمر ، كنتُ الأثيرة دون أن تصرّح لي بذلك لأنها تعرف بأن بوسعي أن أتكهن بالأمر ، كانت تؤمن بي ، وكانت - كلما زرنا منزلهم المهترئ - تأخذ وجهي قريبًا وتنظر في عينيّ ثم تبتسمُ ، تنفرط تجاعيد وجهها بجذل وتتراكم أقواسٌ من الجلد المتهدّل حول غمازتي عينيها لأن البريق ما زال هناك ، لم يفهم أحدٌ معنى الطقس الذي تمارسه ، وعندما تذمّرت أمي بعدها من صمتي الذي لا يطاق أجابتها ويدها تعرك المسبحة الخضراء الطويلة : لقد مكثت في بطنك طويلا ، إنها لا تحتاج إلى الكلام ، إنها كاملة !

كان ثمة عرق نافر في سبابتها اليمنى .

كان الكلام هو أول أنواع المشاركة التي رفضتها ، كنت أكتب وحسب ، أكتب كل الأشياء التي أراها ، أنشغل بأكثر المظاهر سطحية وتفاهة ، أكتب عن الطريقة التي تصبغ فيها شفتيها بالأحمر ، المذيعة السمراء تلك! أو عن عادة مصّ الأقلام ، أو عن انقشاع القشرة عن ذيل قلم الرصاص ، أو عن إطار نظارات مدرسة العلوم كثير الألوان ، أكتب الأشياء التي لا يحفل بها الناس ، وعندما أرغبُ بالكتابة عن أشياء أكبر أشعر بها تجتاحني بوحشية ، أصرخ وأتقيأ ، كانت شيئًا لا أطيقه وأشتهيه ، أن أجد الكون يذوب ويتقوّض مثل لغزٍ يستعصي ، كانت الكتابة لذتي البدائية ، لأنني أكون دائمًا في حالة نقص ، ولم يحدث للحظة واحدة أن كتبتُ شيئا كاملاً ، أن عبّرت عما أريد ، كانت الكتابة تشبه رقصًا حول الرقص ، تدفعني إلى حركةٍ مستمرة نحو تمامٍ أتم ، تمام مستحيل . . كانت الكتابة هي عجزي ونقصي وقلة حيلتي واعترافي بحدودي ، كانت تملكُ القدرة على الغوص والتغلغل ، تقتحم مسامي ، تخترق الجلود السميكة للكائنات المستعصية . .

لم أكن أكتب مذكراتي ، لم أملك أي مذكراتٍ أصلاً ، كانت أيامي تمضي مثل حلقاتٍ متتابعة من السكون ، ولكن في الداخل مني كانت الدراويش ترقص والمجانين تهذي ، عندما يحدث أن أتصفح مجلة وأعثر على خواطر أرسلها القرّاء كنتُ أتساءل كيف

يكتب الناس شيئا كهذا؟ ما الذي يملكونه ولا أملكه لكي لا أكتب مثلهم، ما الذي يجعلني مهووسة بجمع التفاصيل - على غرار جمع الطوابع والعملات - من أجل لوحة تحملُ العالم في قلبها وإن جاءت عديمة الاتساق، لماذا أخلق في داخلي روابط مخيفة مع التوافهِ المرمية في الزوايا المهملة من العالم، وأخبرها بأنها موجودة أيضًا، ومهمة أيضًا، وكأن ثمة من سيأتي ويخبرني الشيء نفسه عني أنا؟!

لقد فعلتُ كل شيء لي وحدي / بي وحدي، بالفضول فوق العادي إلى شيء يقع ما وراء الرؤى، يضخُ في الأعقاب البالية للروح تبجحًا مفجوعًا واحتقارًا لكل آخر من شأنه أن يلخص علي عناء البحث بنصيحة من لدنه! هذا ما ورّطني، الفضول الذي جرني من أكمامي إليك ركضًا وراء ما لا أدري، التكوّر في الدواليب وتحت الطاولات والتنصت على مكالمات الهاتف وكل هذه العادات.. كلها جاءت بك إليّ، طقوسٌ شاذة مثل الذهاب إلى الجمعيات الخيرية والأسواق لاقتناص لقطة ممكنة، مثل قضاء حصص الدراسة كلها جالسة في الصف الأخير أكتب كل ما يمكنني التقاطه من إشارات المعلمات، الطيبات واللئيمات، مثل الاختباء خلف غرفة المدرّسات واستراقِ السمع وتسجيل ما لا يمكن تسجيله، الأحاديث المتراوحة بين الزيجات التعيسة ووصفات المطبخ ورائحة *الفلافل* والمخلّل والكوفي ميت، أو التنصت على أحاديث الشلل الساذجة وما ترمي به من كلامٍ مدبب وأنصال حول هذه أو تلك، الهزيلة معقوفة

الأنف، السمينة التي تشبه الأرنب، البالية التي لا تغير حقيبتها المدرسية عامًا بعد عام، السافلة التي تنام مع الرجال، عالمٌ مزدحم! عالمٌ كثير! مدوٍ.. فاتن!

كنت أختبئ في الدولاب الخشبي الكبير، عندما يحضر أصدقاء أبي إلى ديوانيته، لأكتب - بسرعة خارقة - كل ما يتفوهون به من ترهات وزيف وبذاءات وهرطقة ولحظات ضعف نادرة، كان لكلٍ منهم صفحة عندي، تضم الاسم الحقيقي والاسم الذي أسميه به أنا: الجرذ الكبير، مستر كول، أبو قذيلة، شين الحلايا، باون.. لكلٍ منهم ملف، فيه حقائق عن حياته الاجتماعية والجنسية والمالية، وأشياء قالها، كان عندي وثائق عن حواراتٍ غبية وطويلة ولا تفضي إلى شيء، وأخرى فاضحة وطافحة بأشد الأسرار خصوصية، عالم الكبار المليء بالدسائس والزيف كان واضحا أمامي، إنك تفهم الآن لماذا لم أكن طفلةً في يوم، كنتُ أرى العالم! بمجرد أن أسمع قرع الجرس كنتُ أسرع للاختباء، في البداية كان الأمر محض تحدٍ.. هل أستطيع أن أنسخ بسرعة السمع؟ بعدها تحوّل إلى نزعةٍ شريرة لخلق فضائح وفض أخبار واكتشاف مناطق محرّمة، أردتُ معرفة كل شيء، وكان ما عرفته ببساطة أن أمي قدّيسة، وأن أبي لم يكن جديرًا بالقداسة ولا بالتقديس، كان يخونها.

هاقد فهمتَ الآن، كانت - الشمطاء - حاضرة أبدًا، أقاربي يتساءلون لماذا أكرهها إلى هذا الحد على الرغم من أنها لا تبدو باللؤم

ذاته معي ، لأنني ببساطة أعرف . . أعرفُ الحقيقة ، **أي صفح بعد كل هذي المعرفة؟!**[٦] كانت حاضرة مثل دمّل يطل برأسه بين شفتين ، ولكنها لم تجسر على الظهور إلا بعد وفاة والدتي ، كنتُ أكره أبي وأكره عقاله ، ولكنني في الوقت ذاته لم أفعل شيئًا ، لأنني لا أعرف كيف أتكلم ، ولأن أحدًا لن يصدق طفلةً مثلي ، كنتُ أراقب سير الأحداث ، من خلف الدولاب المقفل ، أذكر أن أبي كان يقضي بعض الوقت في ديوانيته وحيدًا ، مع سماعة الهاتف السوداء التي يضمّها مثل طفلٍ خديج ، وعندما تبين لي لأوّل مرّة أنه يتحدث مع امرأة ، كانت مثانتي تتقلص وشعرت بحاجة إلى دخول الحمّام .. ولكنني تجمدت في مكاني وركزت طاقاتي كلها حول ما يقول ، لقد كتبت كل حرف ، كل نأمة ، كل آهة . .

عندما عثرت أمي على تلك الأوراق ضربتني بقسوة وكانت تبكي ، كانت تصفعني بكلتا يديها وتقول بأنني أخدعها ، في تلك الليلة كان ثمة صراخ يتعالى في غرفةِ نومهما ، بعد هذه الحادثة بشهر كانت قد ماتت . . ماتت في أكتوبر ١٩٩٢ ، مع أذان الفجر .

---

(٦) بتصرّف من تي أس إليوت .

الساعة التاسعة ليلاً

توقفت نصف ساعة لأنني تقيأت

لم يكن موتها مفاجأة، والدي أيضًا بدا غير مستغربٍ، ولا حتى جدتي، ألم أقل بأن أمي قدّيسة؟ كان ينبغي أن تموت لكي ترتفع فوق الحقيقة، هكذا يموت القدّيسون، محاصرون بالنبوءات والحدس، كما لو أننا كنا نعرفُ كلنا.. أن هذا سيحدث.

صبيحة وفاتها حضرت جدتي واثنتان من خالاتي لغسلها مع أخرى غريبة، ترتدي حجابا أبيض طويلاً أشبه بالخمار، وفستانًا رماديًا مقلَّمًا بخطوط كحلية، وحذاءً أسود مسطحًا، إنني أحفظ هيئتها غير المثيرة للاهتمام كما أحفظ اسمي، على الرغم من أنك لا تكاد تجد ما تصفه في وجهها، باستثناء شامة حمراء شمال الأنف، إنها امرأة من أولئك اللواتي يمرقن أمامك دون أن تلاحظهن، ولكنها لا

تغادر ذاكرتي ، ولا حتى أحلامي . . كانت هناك لأجل غسل الميتة ، دخلن إلى الحمّام لغسلها ، كنتُ أقف أمام الباب طوال الوقت ، ألصق به أذني وأسمع الهمهمات المشوبة بالدعوات الخجولة ، جدتي كانت تنهر إحداهن «لا تذكري اسمه في الحمام» . . كانت تقصد الله .

تركت خالتي الباب مفتوحًا عندما هرعت لإحضار القطن ، عندما عادت كنتُ قد وجدتُ لنفسي مكانًا بين الملابس المتسخة المركونةِ في زاوية الحمّام و . . أذكر أن رأسي تنمّلت وأنني شعرت بخدرٍ في ساقيّ ، أمعنتُ النظر بقدر المستطاع ،كانت أمي العارية بقدر المستطاع ، والكاسية بقدر المستطاع . . تتقلّب في الأيدي بعجزٍ ، إذ الأيادي النسوية (المترهلة والناعمة والمشعرة) تدسّ قطعًا من القطن في منخريها وأذنيها و . . حسنًا ! كان لحمها أبيض ونيئًا ، ويبدو باردًا ، لم ألمسها . . ولكنني جازمة ، ورائحة الكافور تفوح من جسدها المذعن إلى طقوسه الجنائزية باستسلامٍ مفجع ، إذ تتقلب بين دموعهن وتأففهن ، والأيادي التي تضغط علىً بطنها لإخراج ما تكدّس من فضلات قديمة ، كان الضغطُ شديدًا ، وكانت الرائحة مؤذية ، وكدتُ أتقيّأ . .

اقتحمت جدّتي المنزل غاضبة كما لم أرها من قبل ، كان ذلك بعد وفاة أمي بثلاثة أشهر ، وكنتُ متكوّرة في إحدى الزوايا ، أكتبُ ، عندما تناهى إلي وقع حذائها على البلاط ، وكيف لي أن لا أميّز تلك المشية؟ حتى أبي ، الذي كان يمصمص الفستق ويتحدّث بالهاتفِ إلى

زوجته، بوغت بحضورها.. (**هلا عمّـ.. عمّـ.. عمّتي**)، لم تنظر إليه، لم تردّ، عرفتُ أنها هنا لأجلي، أن الأمر يتعلق بشيوع خبر رغبة أبي بالزواج الثاني، التقت عينانا، وكان ذلك غريبًا، مثل سقوط.

قالت لي مرّة «لا تنظري في الحفر العميقة، فبقدر ما تملك القدرة على ابتلاعكِ تملكين أنت القدرة على ابتلاعها، ستصبحين عميقة وضائعة كالهاوية»، لم أعرف وقتها بأنها كانت تحذرني من أنني سأكونها، إن ما حدث - ببساطة - هو أن كلانا ابتلعت الأخرى، نهضتُ من مكاني، وكأنني مبرمجة على ما ينبغي فعله، أعرف المشهد وأنتظر حدوثه، أحفظ النص وأنتظر اللحظة الصحيحة، ضامّة إلى صدري كشكولي الأخضر الصغير، أعطيتها يدي، يدي الهزيلة كخيزرانةٍ جافة، أمسكت بي من معصمي وغادرنا، كنتُ سعيدة.

كانت أعوامًا خمسة من العزلة، لا أذكر عنها أحداثًا، أو صخبًا، كانت تجلس على سجادتها طوال الوقت، وعندما كانت تنعس كانت تنامُ على سجادتها أيضًا، وكانت أصابعها - حتى في نومها - تتابع مداعبة الخرز في مسبحتها الخضراء، وكنتُ أتساءل لماذا تفعل ذلك، وأعجبني الأمر.

أقضي وقتي في الكتابة، وفي مراقبتها، لم نتحدث كثيرًا، مررنا الوقت بيننا بصمت، نمنا وأكلنا في ساعاتٍ محدّدة، على فرشٍ أرضية هزيلة، فرشٍ منفصلة، هل كان بوسعي أن أنام في حضنها؟

لماذا لم أكن أفكر بشيءٍ كهذا؟ أذكر - بشكلٍ خاص - أنها عندما تستيقظ ليلاً كانت تغطيني، أحيانا تضع يدها على رأسي وتقرأ شيئًا.. تعاويذ وما شابه، وأعجبني الأمر.

كبرت هناك، سعيدة بكل هذا (اللا كلام)، وكأنها الإنسان الوحيد الذي يفهمني، لم تكن تضايقني، لم تسألني قط.. ما الذي تكتبينه، ولا لماذا تجمعين قراطيس العصير عوضًا عن صور كابتن ماجد اللاصقة، لم تكن تتدخل أبدًا، ولم تطلبُ مني شيئًا، ولا حتى كأس ماء بارد، لم تكن تفعلُ شيئًا، كانت - أيضًا - تريدُ هذا الصمت، وتحبّه، كان لكلٍ منا طقسها، هي تسبّح، وأنا أكتب.. وأعجبني ذلك.

بدأت دراستي الثانوية، وحدث شيءٌ من تلك الأشياء التي لا يتوقعها أحد، لاسيما مع التنبؤات التي لاحقتني حول كوني بطيئة الفهم، تفوّقت بشكلٍ فادح، ودونما جهدٍ يذكر، أقرأ كدودةٍ شرهة، أعبّ الكتب ولم تكن تكفيني، لم أتفوّق لأجل التفوق، بل لأنني - ببساطة - أحفظ الأشياء بمجرد سماعها / أكتب الأشياء بمجرد حفظها، الأمر يشبه ما يحدث عندما تذهب إلى البقالة لتشتري شامبو وتجد مشطا مجانيا ملحقًا به كهدية، كان التفوق هو المشط الذي لم أسع لأجله، وعندما كانت الأسئلة تنهالُ عليّ (كيف تفوّقتِ وقد كنت بالكاد تنجحين في المتوسطة) كنت أصفف كلامًا غبيًا، معلبًا.. حول ضرورة بذل الجهد، وأن من جد وجد ومن زرع

حصد ، ومن سار على الدرب وصل ، كل هذا الدجل ، أغطس في الزيف وأسمي الأمر فضيلة ، أسمي الأمر لطفًا ، أفعل أشياء لا أريدها ، أبتسم لأشخاص لا أحبهم ، وثمة غمام رمادي يغلف وجهي ، لا يراه أحد ، لا أحد باستثناء جدّتي ، التي قرّبت وجهي من وجهها قريبًا وحدّقت فيّ ، ولكنها هذه المرة لم تبتسم ، ولم تنفرط التجاعيدُ الجذلة في وجهها بهجةً رطبة ، دفعتني بقسوة موجوعة ، قطّبت كما لو أن نوبة صداع فجائية قد انتابتها ، ولتني ظهرها وتمددت فوق السجادة الخضراء ، وأنا جلستُ هناك . . مطأطأة مثل ذنب ، وبعد مضيّ شهرٍ كانت قد ماتت .

لم يبدُ أبي راغبًا باستعادتي ، إنه حتى لم يسعَ إلى ذلك في حياةِ جدّتي ، كان يكتفي بزيارتي أحيانًا ، مرّة كل ثلاثة أو أربعة أشهر ، نجلسُ صامتيْن - بشكلٍ غبي - في غرفةِ الجلوس ، جدّتي ترفض أن تراه ، أو تسلّم عليه ، كان يسألني متحرّجًا عن دراستي ، أريه دفتر العلامات ، يضع يده فوق رأسي مباركًا ثم ينصرف ، ينصرفُ وكأنه سيختنق ، لم يكن يحتملّ عينيّ ، ولا صوتي ، كنتُ أشبهها ، وكان يعرفُ أنه السبب .

تجرأ مرة وعرض علي أن آتي معه إلى المنزل ، كنتُ أتساءل أي خبطة أصابت رأسه ليفكر في أمرٍ كهذا ، خمنت بأنه قد حضر محاضرة وعظية حول حقوق الأبناء وصلة الأرحام ، طويتُ دفتري ومشيتُ خلفه ، كان صامتًا وراء المقود ، يقود بمعنا في التحديق أمامه

دون أن يرى شيئا ، لا شيء غير جثتها . . ربما؟ أمضيت الوقت طوال الطريق في تخيّل زوجته ، حاول أن يسألني عن أشياء تهمني ، سألني ماذا يضمّ الدفتر ، أخبرته بأنني أدرس ، وكنتُ أكذب .

عندما دخلنا المنزل أخذتني دهشةٌ مزعجة ، كان مختلفًا ، هذا ليس أثاث أمي ولا ذوقها ، بدأ يناديها ، خرجت من الغرفةِ ملتفة بروبٍ حريريّ عنابي ، كانت حاملاً ، ببطن مترهلة ، ترتدي أقراطًا كبيرة ، كان شعرها المفعم بالسواد يحاصرُ وجهها مثل هالةٍ من الفوضى ، بدت مغناجًا مفتعلة ، بأظافر طويلة مطلية بالأحمر وصوت تسكنه بحة من الصنف الإباحي ، بحة امرأة تستيقظ لتوّها من النوم ، بالكاد تفتح عينيها إلى النصف ، إن هذا هو المشهد المفضل لدى أي رجل! حاولت أن تبدو ودودة ، أملى عليّ أبي (سلمي على خالتك) ولم أفعل ، تصنّمتُ في مكاني بصمتٍ وأنا أبث من عينيّ صنوف الازدراء ، قلتُ عامدة (أمي أحلى ، مرتك شينة) ، صفعني ، تظاهرت التافهة بالبكاء ، ثمّ عاد بي إلى المنزل ولم أرها بعد ذلك حتى توفيّت جدّتي .

بدا متوترًا جدًا وهو يدلفُ المنزل ، وكنت لم أره لستة أشهر ، كما لو أنه يشعر بروح أمي تلطخ المكان ، كان يتعرقُ وفاحت في الأنحاء رائحةً كريهة ، (عظم الله أجرك) ، لاحظت أنه لا يناديني باسمي أبدًا ، لأن الأسماء توجد لصنع علاقاتٍ يرفض أن يقيمها ، ولكن الناس . . المجتمع . . الله . . العالم؟ إنه لا يستطيع شيئًا حيال هذا

كلّه ، سألني عن حقيبتي ، أشرتُ إلى حقيبة جلدية صغيرة في الزاوية ، حملها ومضينا ، لم نتحدّث أبدًا ، كانت أيامًا أكثر عزلة ، ولكنها لم تعجبني .

في ذلك العامِ التقيتُ مشعل ، ابن ابن عمّ أبي ، في عطلةٍ صيفية ، وكان العالم جحيميًا ، لم يحتمل أبي وجودي ، زوجته بدت أكثر تصالحًا معي منه ، وكان ثمة لدغات داكنة للنعل فوق ساعديّ ، كنتُ أرعبه ، وكان الحضور الطفيف للوجهِ الطفوليّ الذي يحمله بمثابةِ الهرب ، لأنه - من بين جميع من أثرت اهتمامهم - بدا جادًا ومأخوذًا ، ثم بليدًا ومعتوهًا ، ثم عاشقًا وحمارًا . . زججت نفسي في حضوره وكأن ليس ثمة خيار آخر .

تخرّجت من الثانوية من ضمن الأوائل ، لأرغب - بشكلٍ آليّ أخرق - بدخول ميدان الطب ، وبمجرد ما ألفيتُ نفسي مضطرة لحضور تلك المحاضرات المملة شعرتُ بأنني أضيع وقتي ، بأن العالم مليءٌ بما هو ألذ للاكتشاف ، استحضرتُ جدّتي ، أعرف بأن موتها جاء مشروطًا بانطفاء البريق في عينيّ ، كان انطفائي خيانة ، ورحيلها عقاب ، عرفتُ بأن عليّ أن أكفّ عن عبثي السخيف ، أن أكفّ عن التحوّل في كل يومٍ إلى دجالة ، سواء فيما أدرسه ، أو في العلاقات الغبية التي أصنعها (مشعل أنموذجًا) ، انسحبتُ من الكلية ، كففتُ عن مزاحمة محبي العلوّ على نخبويةٍ مجوفة ، على حرف الدال ذاك . . وكل الحروفِ الأخرى ! أردتُ شيئًا أبسط وأقل حضورًا ، كتبت أسماء

الكليّات كلها - باستثناء الهندسة - في أوراق صغيرة ونثرتها في الهواء ، اخترتُ واحدةً عشوائيًا ، بأعين مغمضة ، كانت العلوم الإدارية . .

X

الأحد

٦ أبريل ٢٠٠٤

من غرفتي ، بجانب النافذة

الساعة الثانية ظهرًا . .

لا يخلو مشعل من الامتيازات ، وهو صالح تمامًا لأوقاتٍ كهذه ، أحتاج فيها أن أتوقف عن تمثيل دور المرأة الحديدية ، أريدُ كثيرًا من هذا . . أقصد أن أتدثر بالوسائد وأسمعه يغني ، يحدثني عن أماكن جديرة بالمشاهدة ، هل حقًا تعمر المياه فينيسيا؟ مشعل يصلحُ لمواكبة جزعي ، ليس لأنه بارعٌ في الأمر ، ولكنه صميمُ الرغبة في صوته وفي عينيه . . شيءٌ يجعلني أطمئن وأستكين ، أخبرته بأنني أودّ الخروج ، وعدني أن نفعل عندما تسقط بغداد ، سيكون خطر الصواريخ قد خفت . . لذيذٌ شعور الأنثى بأنها محط انتباه رجل

وسيم ، إنه ليس غليظ الشكل مثلك ! ولكنه مع ذلك لا يملك مهارتك في سحر النساء ، أعني . . كل ذلك النمش والشعر الأشعث الأحمر والأعين المائلة وكأنها ستسقط من وجهك ، وذقنك السمين المشقوق من المنتصف ، وساعدك التي يلتف عليها الشعر مثل كومة مجنونة من ديدان الأرض ، إنني لا أمتدحك أبدا تحسبًا لكونك تبتسم ! إن أقل ما يمكن أن يقال عنك هو إنك لا تصلح إلا لإرعاب الأطفال الذين لا يذهبون إلى فرشهم باكرًا ، وقد كنت أنا واحدةً منهم . .

هل كانت السنين الكثيرة المتطاولةُ بيننا هي ما ضاعف من جاذبيتك ، شيء يجعلك تبدو دائما خارقا وعارفًا ومدركًا ، تهز رأسك بسهولة أمام أي شيء أتفوّه به مهما كان شاطحًا وناشزًا؟! كنت قويًا بكونك يصعب إدهاشك ، هل كان الأمر إذًا - بالنسبة لي - محض تحدٍ؟! إنك بارعٌ في القول على الأرجح ، اللغة تقفُ في صفك ، لأنك عندما تتكلم يضع العالم شريطا لاصقا على فيه وينصت ، أنت تبتكر اللغة ، والمعاني معك ما عادت مرمية في الطرقات ! إنك توجِدُ جغرافيا جديدة للتحليق حيثما تحط كلماتك ، وأتساءل الآن إن لم تكن بعد كل هذه السنين . . مجرد مدعٍ .

مشعل أوسم منك ، أو لعلي شعرتُ - من بعدك - بالحنين إلى تلك القسمات المسكينة ، مفرطة البراءة ، الشعر الأسود الناعم والبشرة البيضاء والشارب الأسود الخفيف ، تصوّرتُ لبعض الوقت بأن

بوسعي أن أتحول إلى ملاكٍ إذا أحببت هذا الشاب . . **أنا أنتفُ ريشي الآن ، هل تراني؟!** أنتفُ ريشي وأخربش أكتافي وأرى . . دمًا يسيل ، دمًا لا ضوءًا ! تبًا ! إنني ما زلتُ شيطانة جدًا ، وما زالت تفصلني عنه أراضٍ بوار ، هل يعني ذلك أن مشروع (اقتناء زوج) الذي أتبناه قد فشل؟ ليس بعد ، فليس بالسوء ذاته أن تتسكع في مدينة مثل الكويت في سيارة لاند كروزر معتمة كما لو أنك تجلس خلف نظارة شمسية عملاقة ، وعوضًا عن ذلك ، إنك تذكر على الأرجح أن بيني وبين مشعل لحظات خاصة لم أعايشها مع غيره . . وكأنني لم أشعر قط بالانفصال عنه ، حتى بعد وجودك الطاغي ، أخبرتك بأنني من بدأ التحرش به بينما كنت أقذف بالكرة إلى شقيقه ، أنا البادئة ، أنا التي زججته بهذا الجحيم ، وبأخيه أيضًا ، وأنت قلت لي ما قلته أنا عن شعلان ذلك اليوم «أنتِ كاريزما ، لم تتحمّلي تجاهله» ولكنني لا أدري ، أشعر في داخلي السحيق الذي لم تكلف نفسك بنبشه . . بأنني لست سيئة ، وبأنني قد انجذبت إليه انجذابًا خاصًا ، الغباء الذي ارتكبته هو رغبتي في أن (أصنع) معه حبًا ، أن أقصه من عالمه وألصقه في عالمي ، أردت أن أعيش تفاصيل قصة حب مثل سندريلا ، حسنا ! أعترف بأن هذا الدور لا يلائمني! ولكن حبًا بالله ! كنتُ وقتها في السابعة عشرة من عمري! أرغب بشيء كهذا ، ولأن حياتي ليست مفرطة الاتساع وتحركاتي ليست قابلة للتمدد . . كنتُ البادئة ، وعندما فشلت قررت أن أركله (هذا

الدور يلائمني!) ولكن الطريقة المثيرة التي قبض فيها على أذيال ثوبي . . في صورة رسائل محمومة وجالبة للرثاء ، كل هذا أجّل مشروع البتر الذي قد عزمتُ عليه بشكلٍ مؤذٍ ، إنني - كما ترى - ضعيفة أحيانًا ، ومشعل - ببساطة متناهية - هو لحظة ضعف بامتياز .

في كاليفورنيا ، استعرت الرسائل الفارغة بيننا ، كنتُ سئمة ، وحانقة ، لأنه مع احتراقه حتى عظامه لم يتجرأ ويتخلى عن تكتمه ، كنتُ أراه في لحظات مباغتة يتجلى أمامي عندما أكون شديدة الانهماك في عملٍ ما ، إننا نملك تلك القدرة الغريبة على **التخاطر** ، على الرغم من أننا لا نكاد نلتقي في شيء آخر ، كان يجيء مثل وخزة كهرباء تجعلني أرمي بما في يدي وأطرق ، ويحدث أن تنتابني رعدة أثناء المحاضرات فأعجز عن سماع كلمة ، أصاب بخدر في نصف رأسي الأيمن وعطل في عيني ، عندما يحدث ذلك أعرف بأنه يتألم ، بأنه يناديني ، كانت عيناي تغرورقان بدموع النفور والحنين ، مزيج فوضوي من أشياء لا تجتمع أبدًا ، أشعر به يبكي ، أدفن رأسي في حجر الوسادة أو الكتاب كي لا أسمع ذلك الصوت الذي يتسلل من الداخل الموحش ، أراه في أحلامي . . يرتدي ملابس فاقعة ومزركشة ومزينة بالخرز والنرد والترتر ، يرقص . . ملابس لامعة وشعر طويل وجلد محترق ، أسأله : من أنت؟ يجيب واهنًا : مشعل! وأعرف بأنه ما زال يشتعل ، فيبتسم . . وأعرف بأنه لم يكرهني بعد ، وأتساءل . . متى سيفعل؟ كل هذه التفاصيل لم يخبرني عنها أبدا ،

ولكنني أعرفها ، فكرت بأن عليّ أن أفعل شيئا لأخلصه منّي ، المضيّ النهائي ، التجاهل التام ، الغرق في الفارغ الأبيض ، حسبتُ الأمر كالرياضيات ، مزيد من التأجيل يعني مزيدًا من التراكم ، ومزيدًا من الألم ، ومزيدًا من الغنغرينا ، ومزيدًا من البتر ، أردتُ أن أجنبه ذلك ، **ألم اليوم أقل قسوة من ألم الغد** ، أردتُ أن أفعل شيئا صحيحًا له ، أن أوفر عليه مزيدًا من الابتهال والسقوط ، فانتزعته ببساطة ورميته خارجي ، وعندما صارحني لاحقًا - في الكلية - بأنه يحبني ، الشيء الذي كنتُ أتحاشاه مثل تهمة . . لم أملك سوى أن أشد شعري وأصرخ موجوعة من أجله . . لأنه لن يصرخ في وجهي أبدًا ، مهما أجرمت في حقه .

لم أعد - لاسيما من بعدك - قادرة على الحياة دون رجلٍ يحبني ، لم أرغب ببدء شيء ، مع كل النهايات التي حطت - ثقيلة ومزعجة - على أكتافي ، كان مشعل جاهزًا جدًا ، لامعًا ومرتبًا ومهيئا لأجلي ، ينتظرني هناك على الرف في علبة وردية مزخرفة . . فعلت ، وأنت تعرف بأن القرارات تجيء معي سهلة ، ولا أدري حتى اللحظة إن كان قراري هنا يبطن شيئا من الثأر لك ، أردت أن أتزوّج !

XI

الاثنين

٧ أبريل ٢٠٠٣

الثامنة صباحًا

١

أنا في السرداب، على سبيل التغيير، لا أستطيع النوم، لا بدّ أن أكتب!! الشيء الوحيد الذي يبدو ذا معنى في وقتٍ كهذا، أن أكتب! أشعر بي أسيل خارجي في كل حرف، إنها طريقتي في الانتحار لأنني.. لم أتصالح في يوم مع واقع.. ما فتئ يخالف الافتراضات الساذجة لذهنيّتي، الكتابة حلٌ معقول، إنها تجعلني أتواجد بشكل حقيقي، وأشعر بي أمتدّ خارجي إلى المقدّس، ذلك الذي لا أستطيع لمسه ولا التعمّد فيه ولكنني - وليتبجل الرب! - أراه، أشعر بي أنسلخُ عني، أستحيل ريحًا، أتجرّد من أهدابي وشفتيّ وأنفي، أشعر بي أنا،

أملكُ العالم كله بين قبضتي ، أحاصره في تلك المسافة الضئيلة من الفراغ ما بين الطرف المدبب للقلم البنفسجي ، والورق الموحش في بياضه . . أكتب كما تشتهيني الكتابة / أشتهيها ، هل تذكر كم مرة وبختني لأنني مصابة بداء تسمّيهِ : *ارتفاع صوت الراوي*؟ إنك مجرد متحذلق ومدعٍ ، أنا الراوي ! وسأرفع صوتي عندما أريد ، وكيفما أريد ! حتى لو انجرفتُ في منعطفٍ مجنونٍ وتساءلتُ «أين خبأت زوج جواربي !» ، إنك تبتهجُ بالتعبير على وجهي عندما أجدُ عقبةً أمامي لكي تشعر بتفوّقك ، لكي تخبرني (كم أنت وغد !) بأنك لا تقع في أخطاء شبيهة ، ولكن هنا . . الورقة بيضاء كالرعب ، وأنا لأول مرة . . حرّة ! أنسلخُ عنك ، حروفي تتجاوز جسدي بسنيّ ضوئية ، تريد ابتلاعي ، ينبغي أن أكتب ، أي شيء . . أي شيء يفتح نافذة خارج السرداب البغيض ، السجاد خشن ، بنيّ وخشن ، يخدش ركبتيّ ، الجميع نيام ، الخادمة تبكي في المطبخِ ، إنه جوٌ رماديٌ وفكاهيّ ، وأنا أكتب ، أكتب لأغيب ، أقتل حواسي بما يحدث لأنني لا أفهمه على الرغم من أنه ينخرني حتى عظامي ، أريدُ أن أقتل الأجواء : الوقت والمكان ، والسجاد الخشن ووسائد *السدو* وشاشة التلفزيون ، وطاولة البليادرو وصافرات الإنذار ، وغناء الأطفال وبكاء الخادمات ، والأشرطة اللاصقة فوق النوافذ والجدران الصفراء وركبتيّ و . . أريدُ شيئا أقل ، أقل مني وأقل من كل ما يحدث ، أريدُ أن أقرأ قصيدة حبٍ خافتة ، كم سيكون رائعا لو حصلتُ على قصيدة حبٍ خافتة !

منذ مشعل قررتُ أن لا أقرأ ! مذ عقدت العزم على أن أنجح هذا الشيء الغبي بيننا ، عرفت بأن القراءة ستضاعف نزق المسافة بيني وبينه ، تلك الشريرة ! تزجك في التسامح في الوقت الذي تضاعف فيه بربريتك ، ولأنني خفتُ من التورط في غواية الاكتشاف ثانية ، حملتُ كل الكتب التي أعطيتني إياها إلى المستوصف ، وزعتها على الكراسي والطاولات لكي يجد المرضى ما يتشاغلون به أثناء انتظارهم للدخول على الأطباء ، إنه مشروع تثقيفي تنويريٌ هزلي ، خاصة وأنني كتبت على بطون الأغلفة (وقفٌ لله تعالى) ، أليس نبيلاً مني؟

مشعل غير خائف ، هذا الفتى يخافُ مني ولا يخافُ من حرب ، يردد بأننا في مأمن ، لن تكون هناك أسلحة بيولوجية أو كيماوية ، جلودنا لن تذوب ، *أجسادنا لن تقذف أمعاءنا في الهواء مثل قمامة حمراء ، عظامنا لن تتفتت ، والأهم أننا لن نختنق بالروائح النتنة لأنفاس بعضنا ، ولن تبعث في أجسادنا موجات عصبية عبر العمود الفقري لنشلّ في دقائق أخيرة من الجحيم* ، هذا ما يقوله . . لا تخافي يا حبيبتي نحن بأمان ، أمريكا هنا ، والكويت طفلة تربط خيوط حذاءيها لتركض بين ثلة محاربين : هيه ! حرب ! يا للروعة ! وكأنني الوحيدة التي لا تتسق مع حمى الحرب هذه ، حتى بالنسبة إليك ، أنت تفهم مغزى ما يحدث وتلتمسُ له سببًا ومن يدري ، لعلك تؤيّده ، ولكنني في النهاية لستُ مثلك ، ها أنتَ ترى بأنك فشلت في صبّي في قالبك ، لستُ أنت ، على الرغم من أنني ما

زلتُ أتساءل . . ما أنا! إن هذا ما كلّفني إيّاه انشقاقنا : السؤال الفاحش ! الأسئلة تقذف كالنعلِ صوبي ، لأنني لم أكن أفعل أكثر من الجلوس على ركبتك ، والإنصاتُ ببسالة في سبيل أي شيءٍ تقوله ، كانت كلماتك - حتى تلك الموغلة بالدّجل - تأخذ طابعًا مقدّسًا ، إنني أحفظ مقولاتك كلها وأتمنى لو كان بوسعي أن أتقيّأها وأمضي ، أمضي حرةً منك وأرى العالم بعيني الخالصة .

حسنًا ، أنا لا أبرئُ نفسي من التورّطُ فيك ، فقد ملكتُ (وهذا اعتراف !) دائمًا تلك القابلية للتشكّل في يديك ، كنتُ أجدُ لذةً استثنائيةً في أن أجيء صغيرتك ، بتلك السنين المتطاولة بيننا ، على الرغم من أنني . . لم أكن طفلةً في شيء! ولكن وحدك استطعت استفزاز جهلي ليجيء بهذه الصيغة ، الصيغة الطفلة ، وكل تلك الزيارات التي كنت تقترفها بمجرد أن عرفت أن خلف ذلك الدولاب فتاةً تمسكُ ورقةً وقلمًا وتكتبُ كل الأشياء المرعبة التي تقولها ، وتغرقُ في القهقهة لعلمك بأنني أفجعُ وأتصبب عرقًا ، وتطلق بين كلمة وأخرى آهاتٍ مفتعلة ، وتبتهل (يا للنساء !) ثم تضحك ، تضحك فيما والدي يحدّق بكثير من اللا فهم ، كان بوسعكَ أن تمضي نصف ساعة في وصف جغرافيا شامة امرأة ، أو تتحدث عن ليلة حمراء في تايلاند (تبا لك بالمناسبة) ، وأشياء تتعمد إثارتها وتحمرّ من فرط الضحك لأنني في داخل الدولاب أنسخ ما تقوله هلعة ، عوضًا عن ذلك كنت تقول أشياء لا يقولها الآخرون ، أشياء خارج النساء ، كنتَ

تحفظ شعرًا غريبًا ، يبدو كما لو أنه بلا بداية ولا نهاية ولكنه يحمل الحقيقة في قلبه ، كنتَ تحفظ أسماء كثيرة ، أسماء لم أسمع بها من قبل ، يسمّيك الجميع «مثقفًا» وتسميك الصحف «زنديقًا» وتلعن من فوق المنابر كالشياطين ، تتصرف كملك بلا حاشية ولك لسان حامض وجيوبٌ فارغة ، وقامة فارعة في الاقتراض ومحل زهور فاشل ، مدمن خمور وقراءة ومصاب بعقدة اللا ، عندما تتحدث . . ينصت الجميع .

هكذا كنتُ أحبك ، أحبك قبل أن تعرف عني شيئًا ، كنتُ أعرف عنك وأعرفك ، وأعرفُ أشياء تمنيت لو بقيت قيد جهلي ، أشياء على غرار فاتن ، وعلى غرار نسرين ، وعلى غرار رلى ، والأهم : على غرار فاطمة ! فاطمة الساذجة ، تطلّ برأسها الحزين لأرى آثارك عليه ، دوائر كحلية وحمراء ، تتوسل . . لو تتكرم وتستر انفضاض الشرف الشرقيّ ، لو أنك . . قدمك الغليظة تركلها ، كنت أسمعك ، كانت قصتك الأكثر شهرة ، وكابوسك الأكثر روْعًا ، وموضوعًا للضحك عندما تبدأ بتقليد طريقتها الطفلةِ في البكاء ، وكيف أنها تعلقت بقدميك وتوسّلت ، وكيف أنك أبعدتها ومضيت ، وكيف أنها لحقت بك وتعلقت بقدميك وتوسلت ، وكيف أن كل ما فعلته هو أن قبّلتها قبلة مؤلمة وتركتها لتتوجع وتنوح ، وأنك تصف تلك القبلة (بتصرفِ شهم) . . بعد أن تنتهي من سرد قصتك كان الجميع يصمت كما لو أن غمامة ذعر تظلل الديوانية ، فتبدأ بالتبرير لوحدك

وكأنك تتلقى وخزًا موجعًا في قفاك : ليس ذنبي ، هي التي أرادت ، هي التي خططت ، هي . . أحبتني ، ليس ذنبي أن المرأة وحدها تدفع الثمن ، إن كان مما يجب إصلاحه ، فهو العالم ، لا أنا! وكانوا جميعًا - كما أحدس من وراء الدولابِ - يهزون رؤوسهم . . وماذا تتوقع من رجالٍ كهؤلاء؟ فاطمة تطل برأسها ، أراها ، لو صادفتها في الشارع يومًا فسأعرفها على الفور ، شعرٌ كستنائي بالكادِ يلامس كتفيها وعينان مدوّرتان ، لأن العيون المدوّرة ليست ذكية! وهي - بالتأكيد -غبية جدًا ، غبية لدرجة الحُب ، شفاه دسمة ، أنفٌ شبه مفلطح ، ذقن مدببة . . وبشرة بلون القمح الجاف ، إنني أعرفها ، إنك لم تصفها قط ولكنني أعرفها وأراها في أحلامي وأضمها إليّ وأبكي غباء النساء ، أعيش وكأنني سأراها في أي يوم لأحتضنها ، لأنها كانت كريمة بما يكفي لكي تطل برأسها دائمًا بين فواصل الأشياء ، لكي لا أرغب بمصيرها ، حتى نكوصك الغادر الأخير وتذكارات بذيئة تركتها على ساعديّ بسخاء ، لو أنني أقتلك ! لو أنني أفعل ! سيكون ذلك فضيلة ، كالحرب من وجهة نظر أمريكية !

لم أكن أخشاك ، ربما لفرط ما أعرفك فأعي قوتي بذلك ، قوة المعرفة! شيءٌ لا يضاهى / لم يضاهى ، أعرف بأنني لا يمكن أن أكون الضحية ، إن كان لا بد من وجود ضحية ، ولكنك . . كنتُ ألاحقك ، أكتبك ، أكرهك وأحبك بطريقةٍ ما ، كنتُ الفوضى الراكضة في جميع الجهات ، وبدوركَ لم تكن أكثر من علامة استفهامٍ

تحتفي بالتضاد ، هل كان ضروريًا أن أقوم بجرد وتصنيف شعوري أم أن الأجدر ترك الأمور تنساب كالماء عرةً بين الأصابع؟ لم أحفل بمشاعري ، كانت ذات أهمية ثانوية ، كان اكتشاف العالم عبركَ هو ما يهمني حقًا ، حتى لو بدا العالم قاتمًا ، كان لا بدّ من كشف الحجاب عن هذا الوجه . . وكنتُ سأكتفي ، ولكن هل ستكتفي أنت؟ وهل سيقف القدر بمثابة المتفرّج ، بأصابعه الخفيفة كأصابع جرّاح ماهر . لا كبيرة جدًا ، لاسيما في اليوم الذي أوقعتُ فيه القلم فارتطمَ بالأرضية الخشبية للدولاب ، كان أبي يحضر صينية الشاي ، وكنت وحدك في الديوانية عندما نهضتَ وفتحت الدولاب ونعلك في يدك . . ظانًا بأنه فأر أو صرصور ، ولكنه لم يكن فأرا ولا صرصورًا ، كان أنا! ابتسمتَ (يااااه) ، أنا التي ظنّت للحظة بأنك ستصرخ ، وأن أبي سيكتشفُ الأمر وسأضرب بالعقال أمامك ، ولكنك لم تفعل أكثر من الابتسام ، وضعت إبهامك على شفتيكَ ووشوشتَ : أن ابقي هادئة ، غمزتَ ، أغلقت باب الدولاب وكأن شيئًا لم يكن .

عندما تتذكر الكيفية التي بدأ بها لقاءنا ، ألا تشعر بأنها بريئة ومدبرة من قوة فوقية؟ ألا تبدو على غير العادة متقنة ونموذجية ومريحة لكلينا؟! ليس هذا ما حدث ! أعني . . هذا ما حدث على صعيد ما يمكن قوله ، ولكن أشياء كثيرة تحرّكت هناك . . في الباطن السحيق لكل منا .

أُخذتُ بك / أخذتُ بك تمامًا ، وتلك الليلة كنتُ أتأرجحُ بين

الانتشاء والغضب ، ولم أنم ، كنتُ أحبك / ألعنك والدماء تجري حارّة في عروقي ، إذ أنا أتسمّر أمام المرايا - لأول مرة - وأقلّد غمزتك ، وأبتسم ، كنتُ أبتسم ، هل رأيتني؟ أليس مرعبًا ، بعد أن تمضي سنواتٍ كثيرة من حياتك داخل عقيدة صمّمتها بأنك خلاف الناس لا تكترث بالأشياء التي يلهث وراءها الجميع ، ويسبغون عليها كلمات العيار الثقيل تلك! السعادة ، الحب . . يااه ، أراهن بأنه توجد كلمات كثيرة من هذا النوع ! أن تجزم بأن الحب لا يمكن أن يصيبك أبدًا ، وأن كل آخر في هذا الكون أقرب منك إليه ، ويبدو أكثر ملاءمة منك لكي يصبح أحمق ، وتنصهر المشاعر المتناقضةُ في أعماقه فيصبح كل شيء بريئًا ولا مفهومًا ، تصبح المشاعر عذراء واللغة عفراء وكل شيء يجيء ضربًا من التكشّف والذوبان في كلانيةِ العالم ! إن ما أحاول قوله هو أنني لم أنم تلك الليلة بسببك! وأن أطرافي قد تنملت وخيّل إليّ أن جسدي قد جن ، وأنني لم أجسر على العودة للدولاب وأنا ألمحك تدلف المنزل عبر (الحوش) الرخامي الفارغ بعدها متأنقًا بمبالغة ، وكأنك تعرف بأن ثمة عاشقة ما تراقبك وتبتسم ، أتصدق؟ في ذلك اليوم تحديدًا ، كان مزاجي رائقًا لكي أختلس أحمر شفاهٍ وأجرّبه للمرة الأولى ! وكأنك ستراني ، أعرف بأنك لن تراني ، ولكنني فعلت فعلتي التي فعلت وكأنك تراني! وعندما غبتَ في الديوانية خطر لي أنني أريدُ أن أقرأك ، هل هذا هو ما يسمونه الحنين؟ أردتُ أن أقرأك بعين الرضا التي هي عن كل عيبٍ كليلةٌ ، بعد أن

طرأت عليّ تلك الكيمياء الغرائبية ، بحثت في غرفتي عن آخر ما كتبت عنك فلم أعثر على شيء ، كانت مصادفةً مرعبة ، هل قلتُ مصادفة؟ ليس ثمة مصادفات ! كانت خطة مدبّرة هناك ، فوق ! هل فهمت ما أعني؟؟ لقد نسيتُ أوراقي في الدولاب ، مكثتُ أرى تقلّب الألوان في وجهي وأنا أتخيّل عثورك عليها ، لم أشكّ في أنك ستختلس أي فرصة سانحة لفتح الدولاب ، متوقعًا أن تعثر عليّ ثانيةً ، ستكون أوراقي بانتظارك . . تبًا! إنني أفتضح بفضائحك! كل تلك الأشياء ، عالمك الغاص بالبذاءة والتناقض والدجل كان أمامك من خلالي ، لتقرأه وتضحك . . لم يضربني أبي بنعاله ، ولا امرأتهُ هددتني ، لم يحدث شيء عدا أن الأوراق فقدت ، هكذا عرفتُ أنه أنت ، وكنتُ أكرهك ، بقدر ما أحببت أنك لم تخدش خصوصيتي بقدر ما كرهتك لأنك تجرأت على اقتحامي ، أو على اقتحامك من خلالي ، منذها وأنت ما فتئت تعزز من نرجسيتك عبر ما أكتبه ، منذها قررتَ أنك تريدني وانطلقت في هذا الطريق . . لأنني عندما فتحت الدولاب لاحقًا عثرتُ على ورقةٍ تحمل رقمك وقد كتبت أسفل الرقم (مجنونة!) ورسمتَ وجها ضاحكا جدًا ، يشبه أيقونات الآي آر سي . . ارتعشت أصابعي ، زممتُ شفتيّ بتشنّج كي لا أبتسم ، وكأنك تراني! دسستُ الرقم بين طيات ملابسي وركضت إلى غرفتي ، اختبأت تحت الأغطية وأنا أرتجف ، كان ذلك ضربًا من الارتجاف الذي يساور المرء أمام نبوءة ، كان رعبًا شهيًا وباردًا ، ومذ

ألفيتُ نفسي مغمورةً فيه عرفتُ بأنني قد قررت في داخلي أن أستجيب لك ، وتساءلتُ متى وجدتَ الوقت لكي تكتب رقمك على ورقة ، لكي تعثر على ورقة ! أم أنك كنت تخطط لرميه في وجهي أصلاً ، وأنك أتيت لهذا الغرض أصلاً ، فإذا بك تجد صيدًا أكثر إغراءً وسمنة ، تجدكَ أنت مكتوبا .

أصابعي تأتي أرقامك السبعة ، رعشة غريبة في بنصري الأيسر ، لا تنتظر لتسمع صوتي ، وكان ذلك ضربا من الاستعراض الناجح ، فبمجرد أن رفعت السماعة قلت بصوتك الأجش المتشقق المألوف الباعث على الرعشة :

- مجنونة . .

ثم ضحكت ضحكة وقحة .

- أبي أوراقي .

- ماني معطيك إياهم .

كنت تتصرف كمن يستلذ بإزعاج طفل ، يأخذ لعبته المفضلة بعيدًا ويضعها فوق رفٍ أعلى منه بعشرين مرة ، ثم يردد «كم أحب الأطفال !» ، كنت قذرًا !

- مالك حق .

- بما أني مادة الأوراق ومحورها الفحل ، أعتقد أنها أوراقي .

هل . . أم أنني أتخيّل؟ كنت تضع القوانين؟ وبأي صفة؟!

- خلاص ، خلهم عندك . . بلهم واشرب مايهم !

- ما تخافين أعطيهم أبوك؟

- هذا ابتزاز؟

- ليش لأ؟!

- . . أنا ما أخاف شي !

- بس إلي سويتيه عيب !

بغضتك في كل كلمة ، الزيف الذي تفتعل لمجرد إغضابي ، وكأنك تجهل أنني أراك ، أعرفك وأعرف أي ضربٍ من العفن يتملك رأسك ، وأن النصائح الرخيصة التي تسديها تناقض جوهرك ، وأن آخر ما تبالي بشأنه أن يكون التجسس لا أخلاقيًا . . خذلتني ، فقد كنتُ أراك كبيرًا لمجرد أنك لا تملك أكثر من وجه لتظهر به مهما كان بشعًا ، وبدأتُ أكفر بك ، شعرت بعبثية اتصالي وسخف الموقف .

- آسفة عمي ! عن إذنك . .

هكذا قلتُ . . لأواكب موجة التفاهة إيّاها ، الغريبُ كان هو تلك التنهيدة التي أطلقتها مشوبة باستسلام ما ، لأنني لم أهبك تلك اللذة ، لقد كنت كما أردتني أن أدّعي ، مخلوقة مهذبة وزائفة .

- زعلتي؟

- بترجّع لي أوراقي ولا شلون؟

- ثواني بس . .

خيّل إليّ من الطريقة التي قلت فيها (ثواني بس) أنك كنت منهمكًا في إشعال سيجارة ؛ لأن ثغرك بدا نصف مفتوح من الطريقة

التي سمعتُ فيها صوتك ، بدأت منذ ذلك المفصل / السيجارة تغير أسلوبك معي ، وكأنني ندٌ حقيقي .

- سعاد أنا ودّي أكلمك بخصوص الأوراق .

- اسمع عاد! إذا بتقعد تقولي عيب وكلام فاضي وفر كلامك لنفسك ، ترى أنا أعرفك أكثر من أمك .

- هذا إلي مشجعني . .

- شنو؟!

- باكـــــر إذا زرت أبوك بخلي لك في الدولاب هدية ، راح تعجبك .

- هدية؟

- إيه هدية ، ألحين حبيبتي أنا بمشي وراي شغل ، ماشي؟

- والأوراق؟

أقفلت الخط .

تتجلى غرابتك على نحوٍ سافر ، لا أعرف ما الذي تخطط له ، ولكنها تلك الكلمة التي أطلقتها بشكل بدًا عفويًا بقدر ما بدا مقصودًا . . حبيبتي ! كانت نصلاً في الخاصرة ، هل تصدق أنني يمكن أن أرتعش وأبكي من كلمةٍ كهذه؟! أنا؟ حتى أنا لا أستطيع أن أصدّق .

راقبتك وأنت تعبر الحوش ، تدلف الديوانية حاملاً كيس نايلون أزرق ، لبثتُ مكاني كقط يتوثب للانقضاض ، أنتظر ثلاث ساعات ،

مفاصلي تتصلب ، قدمي يأكلها الخدر ، إحساسي بوجودي تلاشى لفرط ما انفصلتُ عني ، بمجرد مغادرتك وأبي للديوانية أسرعتُ إلى دولابي ، عثرتُ هناك على ثلاث روايات : *الغثيان* لجان بول سارتر ، *الحياة هي في مكان آخر* لميلان كونديرا ، *السأم* لألبرتو مورافيا ، مصحوبة ببطاقة كتبتَ فيها : (إلى سعار) ، شددت ذيل الدال إلى أسفل لتستحيل راءً . . وتحولّتُ أنا ، بفضلك ، ومنذ ذلك اليوم ، إلى مرضٍ قاتل .

فاطمة تنوح في الجزء الخلفي من رأسي وتضرب وجهها ، ولا أرى أمامي إلا ثلاثة كتب ورجلاً غريب الأطوار والشكل . . وبهذا كنتَ أول من منح إشباعًا لذلك التوق الملحّ إلى الاكتشاف ، أتحول من جاسوسة إلى دودة كتب ، أقرأ طوال النهار وأسمعك طوال الليل تدغدغ انتشاءاتي عندما تخبرني بأنني مبدعة ، وبأنني أستطيع أن أكون أعظم كاتبة لمجرد أنني أملك حواسًا يقظة على حدّ تعبيرك ، تطلب مني أن أكتب وتقرأ أي شيءٍ أكتبه بانهماك ، تصر أن لا أقرأ أي كتاب ما لم توافق عليه ، تردد دائمًا بأنك أعددت برنامجًا قرائيًا لي ، وأن عليّ أن ألتزم به لأصقل موهبتي بشكلٍ صحيح ، وكانت تلك المصادرة[٧] الأولى التي اقترفتها بحقي ، أستاذيتك اللذيذة

(٧) كان هناك خطان أسفل كلمة المصادرة وسهم يتسلل إلى حاشية الورقة كتب فوقه تعليق : هل سمعت بهذه الكلمة من قبل؟

والبغيضة في فرض آرائك وتعليبي وفق ما تشتهيني عليه ، لم أكن أدرك حقيقة ذلك إلا لاحقًا : كنت تجهزني من أجلك .

كنت تملك دائمًا ما تقوله ، فأنت دائمًا (تعرف) وببساطة ! حتى يخيل إليّ أن كل شيء بالنسبة لك ضرب من البداهة ، لم تكن تنصت ، ولو أنك أنصتّ قليلا! لم تسألني عن ولعي بالديدان ، ولا عن لدغات عقال أبي على ذراعي ، لم تنصت لي بقدر ما أردت أن تجعلني أرى العالم من عينيك ، أن أرى الصواب صوابًا لأنك تريد ذلك ، والخطأ خطأً لأنك تريده كذلك أيضًا ، لقد قرّرتَ نواميسي بوقاحة ، والحقّ أنك لم تكن تملكُ تصنيفًا واضحًا للصواب والخطأ ، ولكن كان العالم كله ينقسم إلى ما يعجبك وما لا يعجبك ، ولكي أظل في جادة الأشياء التي تعجبك عليّ أن أتصرّف وفقك ، أن أكون لعبتك ، أو أن أكونك . . وكنت أتساءل : أي شيء يجعلك تتمسك بي لأنني أعرف بأنك رجلٌ عامرٌ بالنساء ! وكانت الأجوبة تنسابُ عبرك في كلمات منمقة فصيحة (ساعديني لنكسر معًا كل تابوهات العالم !) ، الآن أعرفُ بأن كسر تابوهات العالم بالنسبة إليك هو أن أملأ لك سريرك ، وأعرف بأن كل ما لحق بفاطمة كان جزءًا من قضيتك النبيلة في كسر التابو . . كنت تتحدث بأن هذه رسالتك ، الحرية وكسر الـ . . ماذا؟ التابوهات! وعندما كنت أسألك عن الله كنت تقول . . لا أدري ! وأحيانا تقول : عندي إلهي الخاص ، دعكِ من الأغبياء وآمني بطريقتك أنتِ ، وعندما كنت أسألك عن الأنبياء

كنت تقول : ربما كانوا بشرًا حقيقيين ، إننا لا نستطيع أن نتأكد من الأمر! وعندما كنت أسألك عن القرآن كنت تقول : كتابٌ جميل جدًا ، يجب أن تقرأيه ! مثل أي رواية أخرى ، هكذا تجيب ، وقد وجدتُ أفكارك صادمة وموجعة بالنسبة لمن تبحث عن إيمان آمن ، هل يعقل أن الوقت الذي قضته جدتي في التسبيح كان هباءً؟ لم أكن لأسلّم بذلك أبدًا ، وأنت لم ترد أن أؤمن بما عداك ، كسر التابوهات ! هذا ما قلته . . الحرية الجنسية ! لقد بشر بها جبران وأنا على خطاه ! الحرية الجنسية هي الحل! تتحدث بحسية مضاعفة أن كل شيء في العالم قائم على الجنس ، كل الحضارات والثقافات والآداب العظيمة هي شهوة جنسية ، ثم تسترقُ النظر إلى وجهي المصمت ، تضغط يدي بيدك وتقول بأنني صغيرة ، وبأن علي أن لا أقلق ، وأنك تفهم كيف تجري الأمور هنا ، وأنك لن تفعل ما يؤذيني ، وأن كل ما يهمك في الوقت الراهن هو أن أكتب ، وأنني مشروعك ، ولستُ مثل أيٍ من نسائك ، إنني صغيرتك الواعدة! أجتهد لأكون تلك التلميذة ، بالطريقة التي تروقك ، أحفظ ما تقوله / أنفذ ما تقوله ، وتمضي دقائق فاحشة من تلك المكالمات في تذويبي . . أحبكِ ، أخذت بكِ منذ أول دولاب! وقصائد تزعم أنك كتبتها في سبيلي ، وأشياء كنتُ أسمع أبي يرتلها على مسامع زوجته قبل وفاة أمي ، إنني الآن أسمع الكلام ذاته وأنتشي وأشعر بي أملأ العالم ، أشعر بأنني الأجمل ، بأن ما من أنثى أخرى على الأرض تملك ما أملكه ، كنت تسميني (مشروعي) ،

وتريد لهـذا المشـروع أن يجيء مطابقـا لرغـبـتك ، كنت تصنعني لنفسك ، تشكلني بيديك ، تبيّتُ النية أنني سأكون امرأتك وبالطريقة التي تريد ، تختار لي عقائدي وفساتيني على حد سواء . . كنت وغدا جدًا .

كنتُ سعيدة ، وكأنك كهفٌ أو سماء ، كنتُ أريد أن تهبني فضاءات آمنة للتنفس لأنني ما فتئت أذوي وأهترئ وأتسكع على أطراف الصفحات دون أن يجسر أحد على النظر في عيني ، لا أحد بعد جدتي ، كنت تضخ فيّ تلكم النار مرة أخرى ، تطلعني على أشياء لم يكن من الممكن معرفتها من خلال أحاديث الناس ، كنتُ ألتهم كل ما تتركه من كتب ، خاصة الأسطر التي تكون قد وضعت عليها علامةً بالأحمر ، وأتساءل عما يمكن أن يكون قد أعجبك هنا بالذات ، ليعجبني بالذات! كنت أقتني ذائقتك وأتشبّه بك مثل نبيّ ، متناسية أن الدجالين يستطيعون اجتراح المعجزات! وبعد مضي الخمسة عشر كتابًا تركتَ لي جهاز هاتف خلوي ، صوّرت الأمر كمكافأة ولكن الحقيقة أن تلك الساعة التي أخصصها لك في الليل لم تكفِك ، تريدُ أن أتصل في كل وقت ، آمنة من احتمال أن يرفع أحد الخط ويسمعنا ، كنتَ - في الحقيقة - قلقًا لأنك تدين لأبي بمالٍ ما ، وتملك أشياء لتخسرها إذا غضب ، أما أنا ، فلماذا سيهمني الأمر؟ فعلاقتي به منذ وفاة أمي وجدتي لا تتجاوز نوبات العقاب ، أو الطريقة التي يمسح بها على رأسي عندما يعبر الحوش ويجدني هناك

وكأنني أذكّره بذنبه القديم ، إن علاقتي بأبي أبعد ما تكون عن أن تفرض عليّ هذه السلطة لأنه - منذ وفاتها وجدّتي - لا يستطيع أن ينظر في عينيّ ، إلا ورآها .

إذا اعتبرنا وجود الهاتف الخلوي مفصلاً في العلاقة ، فقد أخذ بها إلى مناطق أكثر وعورة ، لم تعد الكتب محور ما نتحدث عنه ، بل كان في الغالبِ نحن ، كان عليّ أن أعرف بأنك تغالط نفسك ، بأنني لستُ مشروعًا إبداعيًا بقدر ما أنت توّاق للأنثى التي تملك القابلية الطيعة للتشكل ، أنثى الطين الخصبة التي تقتني ما يعجبك من الأفكار والملابس واللغة والعاداتِ والذوقِ على حدّ سواء ، كنت تبنيني لأكون لك ، تردد بأنني . . صنيعتك ، كما أن صدام صنيعة أمريكا ! كنت تستبيحني ! وأسألك :

- متى ترجع لي أوراقي؟
- خليهم معاي شوي .
- ليش؟
- أبي أحسّك . .

هكذا تجيب / هكذا أصمت ، أتخيل أنك تمضي الليالي كلها في تنشق الأوراق ، تفكك عقدي النفسية عبر خطي ، تضحك على الأشياء التي قلتَها ، تعرف بأنك لن تحظى بأخرى توليك الاهتمام وتلهث وراء أي شيء تقوله ، تنصبك صنمًا حيًا ، وتحاصرك بهذه الهالة المستديمة من الدهشة ! أنثى تهبك ليس الحبّ وحده ، بل المجد!

أليس هذا ما يريده أي طاغية؟!

بتّ تطالب بالمزيد، ليس بمزيد من القراءات وإنما بمزيد من اللقاءات، ولم أكن لأمنحك ما تريد في البداية، وجدت لذة آثمة في التمنع / في لفظها بشكل قاطع ومغناج (لا) والانتصار باحتراقاتك الخفيّة، حسنًا! كنتُ أراها في منامي، فاطمة الدامية تركض خلفي عندما أنتهي بحائطٍ.. تمسك بيديّ، الدم يقطر من أنفها، ولم أكن أعرف ماذا أفعل، هي كانت تعرف.. كان جسدها يتخللني كالضوء، تقتحمني، أستيقظ بجبهة مندّاة، بحبّات عرقٍ حزينة.. وأنت - بسبب هذا التنائي المفتعل - تجنّ أكثر، تلحّ أكثر، تقول أشياء لا يجدر بك قولها، بأنك ستكتفي برؤيتي من بعيد في مكان عام، أن كل ما عليّ فعله هو إطلاعك على ساعة خروجي من الكلية، أريد أن تحترق، أمنحك دقيقتين تختلسهما لحظة ذهاب أبي لإحضار الشاي، تفتح الدولاب لتراني، أذكرك.. حلقت ذقنك وتعطرت، وأذكر ضخة الشغف في أحشائي، وأذكر أنك قبّلت الهواء وأقفلت الدولاب، وأنك أمضيت السهرة تحدث أبي عن حبيبتك الجديدة / أنا، وأنها لئيمة بخيلة، كان حديثك يومها محض شكوى مكلومة «إيه يا بو ناصر! شقولّك.. مطلعة لي قرون، بس بنت كلـ..!» وأبي يضحك! ويرتشف ما تبقى من الشاي في قعر (الاستكانة)، ويبدو أن الحديث قد راقه لأنه معجب بشتائمك، يسألك:

- حلوة؟

- وحدة يا بو ناصر وحدة ! ولا أنا شاللي ذابحني؟!

- طوّل بالك . .

- بالي طويل ، هالبنت بالذات ماني مخليها .

- والله وجاتك إلي جابت راسك!

- تخيّل يا بو ناصر تخيلني أنتظر أسبوعين عشان أشوفها دقيقة؟

- زين تسوي فيك ، لو يحصل لي أشوفها بقولها . . حيل فيه ! عفية !

- آه يا حرّة قلبي . . آه !

- يمكن ما تحبك . .

- مو على كيفها !

جدران الدولاب تضغط جسدي ، أكبرُ وأنتشي ، كيف يمكن أن يحدث ذلك لي أنا؟ ولماذا معك أنت . . رجلٌ بلا مميزات يمكن أن ترغب به أي أنثى ، ربما لم أكن أي أنثى! ربما هذا هو السبب وراء إلحاحك اللاحق في سبيل لقاءٍ أقرب ، التأفف المتواصل وتذمّرك طوال الليل من بلادتي :

- حرام عليك سعاد ، أبي أشوفك ، أبي أحسّك! أبي أشوفك تتكلمين ، تحركين إيدك . . حواجبك . . تطالعيني فـ عيني !

- ليش؟

- شنو إلي ليش؟ كل هذا بيننا وتسألين ليش؟ إنتي تشكين

بمشاعري؟

- طبعًا !

- يا ربي ! شسوي بهالبنية عشان تصدقني بس؟!

تلعب دور الضحية ، مشكلتك أن اللعبة لذيذة لكلينا ، فأنا - على خلاف جميع نسائك - أعرفك أكثر مما تريد .

- سعاد يا عمري إنتي من شنو خايفة؟

- أنا ما أخاف .

- عيل ليش ما تبينا نشوف بعض .

- . .

- قولي ! لا تستحين . .

- عشان فاطمة .

- فاطمة؟!

تتنهد / تبدو متفاجئًا قليلاً :

- إنتي شنو علاقتك بفاطمة ، فاطمة رقم . . وحدة من آلاف . . بس إنتي ! إنتي غير سعاد . .

- إنت قلت لها هالكلام بعد . .

- هي قالته لنفسها وصدّقته ، سعاد أنا ما جبرت أي وحدة على شي ، هم كلهم . . كلهم . . إنتي شخايفة منه؟

- أنا ما أخاف ، أنا أعرف !

- لا سعاد! أنا وياك علاقتنا . . غير ، علاقة معرفة واكتشاف

وحرية وجنون وكتابة وصداقة . .

- كلام !

- خليني أكمل! أنا ما أسعى ورا شي معاك ، أنا صريح . . ما ألف وأدور ، وترى عندي إلي مكفيني ، الحريم كثر الرمل . . وتحت ريولي! (أحمرٌ) وأنا ماني مطفوق! (أحمرّ أكثر) إذا على الجمال عندي إلي أحلى منك ، إنتي شنو تحسبين؟! بس إنتي ، ما أدري ليش تحمست لك ، أحس إنك شي عظيم ، وودي هالشي العظيم . . يكبر بين ايدي! إنتي بس بطلي خوف ، إنتي ثروة سعاد ، ثروة محد منتبه لها . . إنتي ليش صعبة! أنا أميل لك صح . . عندي لك مشاعر خاصة ، بس مشاعري أبعد ما تكون عن الشهوة! سعاد أنا - خليني صريح بهذي - عندي عشيقات . . وايد (أحمرّ أكثر !) ولا أبيك تصيرين وحدة منهم ، أبيك . . أبيك توأمتي ، بس . . إنتي! إنتي! تدرين شلون؟ أنا الغلطان ، تحمست لك بزودة . . سوي إلي يريحك ، أنا ما أغصب أحد على شيء ، أنا إنسان مثقف ، مؤمن بالحريات . . وما أناقض نفسي ، عن إذنك . .

يا لك من سياسي محنك ، بمعنى آخر : قذر! لاسيما عندما تعزفُ على أوتاري إياهًا ، العاشقة المكابرةُ تتداعى ، تُذعر ، تذعن ، تصبح الوحدةُ رعبًا والغياب كقضمِ الجمر ، هل أملأك بهكذا اعتراف . . لا يليقُ بي؟ أنني - مثلهنّ ! - أتألم عندما يغيبُ عني رجلٌ عبأني شعرًا ، هل صعبٌ عليك قبول فكرةٍ كهذه؟ أم أنك كنتَ

تعرف بأن الطفلة التي تعلك الجريد وتتجسس على والدها وتدخر صوتها مثل مؤونة شتوية يمكن أن يكون لها قلبٌ على أي حال ، وأن هذا القلب سيكون - طوال مشوار حياتها - لحظة ضعف لا أكثر؟ كان صعبًا عليها أن تستأنف حياتها القديمة ثانيةً في غيابك ، وكانت تراك / تلعنك في كل الأشياء ، وكانت- اكتم شهقاتك ! - تبكي . . اللعنة ! أنا أضعف مما أظن ، طوال أسبوع انقطعت فيه عن زيارتنا ، وامتنعت عن الاتصال أو حتى الرّد لتضخّ في دمي الخزي ، ماذا كنتُ أظن؟ كيف خطر لي أن أفكر بهذه الطريقة أصلاً؟ مرّ أسبوع ، وكأنني منفية في أرضٍ بوار ، أغمض لساعاتٍ وأسأل نفسي إن كنت ستعود ، وأعرفُ أنك ستعود ، أنتظر ، مخلصةً أنتظر ، أتصل في كل يوم مرة واحدة ، واحدة فقط ، في ساعةٍ محددة ، إن لم ترد ، أقرر أن أنتظر لليوم التالي ، بهدوء من يعرفُ إلى أين يمضي وأين تأخذه حياته (هل كنتُ ساذجة؟!) ، ألم يكن كل شيء مدبرًا وجاهزًا من أعلى؟ لماذا ينبغي أن أقلق؟ كنتُ أنتظر أن يحدث ما ينبغي أن يحدث ، لأنني أثق بالأصابع الخفية للقدر ، كنت ستردّ . . لأنك ستحنّ ، أعرفُ ذلك بطريقةٍ ما ، بحدسٍ أنثوي ما ، أتصل ، للمرة السابعة . . يجيئني صوتك :

- هلا سعاد .

- مريض؟

- شويّ . . كح ! شلونك؟

- بشوفك باكر .

- باكر؟

- إيه ، بعد الكلية .

- لا ، باكر ماقدر سعاد ، عندي ارتباط .

- مشكلتك .

لم يكن لقاء في مكان عام ، بل كنتُ في وكرك ذاته ، أردتُ أن أركب سيارتك وأن أرى الكويت معك ، وأجلس على كرسيّ الموظف في محل الزهور الذي تملكه ، كنا في حلم ، نقطع شارع الخليج ونثرثر بكل ما يخطر على بال ، نبدو متفاهمين في كل ما نفعل ، البحر يفرد ذراعيهِ في الهواء إذ نركل الرمال والأمواج ونتقاذف بالأصداف و . . الكويت جميلة ، نأكل في مطاعم رخيصة ، نجوب مناطق غريبة ، أجلس مثل ملكةٍ خلف المكتب في محل الزهور ، وأتابع أصابعك تصنعُ لي باقةً مفعمة بالفرادة ، أختارُ الأزهار بنفسي ، تنسقها حسب رؤاك . . **هل تعرفين بأن معظم أسماء الزهور جاءت من أسماء آلهات اليونان؟ التيوليب عنيدة ، إنها رمز التمرد ، البنفسج نرجسي ، الورد للحبّ وحده ، الوردُ لكِ** . . أشعر بأن الحياة معك لابدّ وأن تكون سلسلة لا متناهية من الاكتشافات ، كل شيء حولي يتفتح للمرة الأولى ، وكأن الأشياء تنسلخ من أسمائها ، تنتظر أن نسميها نحن . . لكأن البحر ليس مجرد بحر ، والسماء ليست مجرد سماء ، والكويت ليست مجرد كويت ، كل شيء يبدو أكثر مما هو

عليه ، إنني - على الرغم من المرارة المتفاقمة - لا أملكُ إلا أن أكون منصفة ، كان يومنا الأول رائعًا ، وأتساءل الآن : هل هذا هو كسر التابو؟! الغريب أنني في غمرة هذا كله لم أمنح نفسي لحظات لأتساءل . . ماذا يريد مني ، وماذا أريد ، كنتُ أفكر بأنني بحاجة لساعدٍ قادرة على فتح النوافذ العالية ، أردتُ أن أرى كل شيء وأشعر بمنظومة العالم من حولي تتحرك في اتساق وتوحد ، أردتُ - في غمرة الوحدة التي غطت حياتي كلعنة لاصقة - أن أجد من يفهمني ويقدر على ذلك دون هزات رؤوس كاذبة . . لا يمر أسبوع دون أن أراك في المحل ، كنتَ تصنع لنا الشطائر ، نجلس مختبئين في السيارة ، سعيدين بالعتمة التي تلطخ الزجاج ، لم تعد الأمكنة مهمة طالما أننا معًا ، نتجوّل في أماكن لا يرغب بها أحد ، مبانٍ قديمة وأخرى قيد الإنشاء ، بين المنازل المهترئة في حولّي وفي الجمعيات التعاونية ، كانت لنا أماكننا الخاصة ، أماكن جديدة دائمًا ، نلتقي في الكويت كلها ، نغزو الوطن ! هل يفسّر ذلك لماذا أرغب بالهجرة الآن؟!

وكأننا نتفق في سرائرنا السحيقة بأن اللعب بالنار ألذ من الاحتراق في أتونها ، أن تلك اللحظات التي تسبقُ أي شيء هي أجمل من الشيء ذاته ، أن الانتظار هو قمّة اللذة ، لأنه قمّة الألم ،كنتُ آمنة جدًا ، مؤمنةً جدًا ، بأننا صديقان فريدان ! وحتى مع المرات الكثيرة التي قلتَ فيها . . أحبكِ ، كنتُ أرى العلاقة كشيء غير قابل للتصنيف ، لأنني لم أرغب بالوقوع تحت ضغوط ،

أردتُ أن أتحدث معك بحرية كاملة ، أن آخذ رأيك في شراء ملابسي وأستلف نقودك دون أن أعيدها ، وأستخدم عطورك وأسرق أشرطتك المفضلة ، وأسخر منك وألطم أنفك المسطّح ، أن أتصرف كما لو أنك . . أنا الآخر ، أريد في حال تأملني شابٌ وسيمٌ في السوق أن ألكزك بذراعي وأسألك «حليو . . مو؟» دون أن تثور أو تغار ، في البداية كان الأمر هكذا ، في البداية فقط . . هل هي شهوتك المهلكة إلى الامتلاك ، أم تراها رغبتي الناشزة بالسيطرة دفعت الأمور إلى اتجاهٍ مأساوي وبكل القبح الممكن؟! مضت أشهر كالاحتراق البطيء ، وأنت أردتني بقوة! تتمزق وتكابر : الكويت عامرة بالنساء ، الكرة الأرضية عامرة بالنساء! ولكنني أنا فتاتك ولست أي أخرى ، تريدني! تتعلل بالكتابة ، تقول بأنك تعدّني لأصبح كاتبة حقيقية من خلال الكتب التي تهبني ، والتجارب التي تزجني فيها معك ، لأجرّب «صنوف الإحساس» على حدّ تعبيرك الغبي ، كنت تقول بأن عليّ أن أعض على كبد الكلمة ، وأكتب كما لو أنني قلب العالم ، لم يكن هذا يتحقق إلا عندما تنصبّ نصوصي فيكَ أنت! كما لو أنك تصلُ فجأة إلى البؤرة التي ينعكسُ فيها الضوء بشكلٍ نقيض ، كما لو أنك تصل إلى منتصف فيلم أو مسلسل خليجي سخيف ، حيثُ يبدأ كل شيءٍ في التساقط والتهتك والتعفن ، حيثُ الصورة الطوباوية تستحيلُ إلى أكثر الكوابيس شناعةً ، إنني لا أدري حتى كيف يمكن أن تتحوّل القدسية إلى هباء ، إلى دنس ، كل ما أعرفهُ أنني أحببتك

أكثر مما أريد ، وبتّ أضيق ذرعًا بانفلاتك المراهق نحو جغرافيا العربدة في بانكوك ، قررت بأنني أعرف بأنني أحبّك ، وأن عليك أن تجيئني بالصيغة التي أريد ، حيث لا يعود بوسعك أن تكون خائنًا . . وكنتُ - يا لغبائي - سأقبلُ بك ، وسأصدق أي وعودٍ تتفوهُ بها في سبيلي ، ومن يدري ، ربما كنت سأغفر لك أي انتهاكٍ لهذه الوعود ، ولكنني ما عدتُ أريدُ علاقة حبٍ تجيء في عباءة مشروعٍ ثقافي ، وما عدتُ أريد رغباتك الولهى دون أي وفاء ، لا كما أخلصَ أبي لأمي ، بل كما أخلص أبي لزوجته ، أن تتخصص بي كما أتخصص بك ، وسيكون ذلك عدلاً . .

تنفث في أذني آهةً كبيرة بعد أن تنهي سرد قصة أسفارك الأخيرة . . ولما تبين لك أنني - من وراء الخط - منزعجة ، سألت بوقاحة :

- شفيك يا حبي؟

- ما فيني شي .

- شكلك تضايقتي .

- لا . .

- قولي ، لا تخشين عليّ .

- إي تضايقت .

- ليش؟

- ممكن سؤال؟

- طبعًا!

- وين بتوصل علاقتنا؟

وبدا لي أنك قد بهت ، وأن السؤال كان طعنة من الخلف ، وأنني أخذلك بطريقتي التقليدية جدا في التفكير!

- شتلمحين له؟ زواج؟

- مثلاً !

هل كنتُ أريد الزواج فعلاً وأنا لم أفكر بالأمر أصلاً حتى تلفظت أنت بالكلمة؟! هل كان الأمر إمعانًا في العناد والخذلان والمفاجأة؟ أم أنه كان ضربًا من ضروب العودة إلى الجذور؟

- بس إنتي تعرفيني عدلْ .

- أبي حياة . .

- وإلي أنا أعطيك إياه مو حياة؟ هذي هي الحياة سعاد . . حياة الحرية !

- تعبت من الحرية ، ما أثق فيها !

بدا وكأن الموقف يفلت من سيطرتك :

- وما تثقين فيني؟

- لا . .

- ترى سنة ونص مرّت من غير ما . .

- أدري !

- يعني إنتي شايفة إني ما أقدّر موقفك؟ إني ممكن أضرّك؟ ترى

أنا ما أجبرتك على . . شي . . أقصد ، أنا فاهم الوضع ولا جازفت فيك سعاد .

- إنت بس خايف من أبوي ، أدري إنه يطالبك مبلغ و . .

ضحكتَ ببلاهة ، كان شيئًا لم تتوقع سماعه :

- شهالخرابيط ! سعاد أنا أحبك !

- تزوجني !

- يا عيوني لا أنا ولا إنتي ويه زواج !

- تكلم عن نفسك!

- أصلا هذا مفهوم متخلف ، زواج! ورقة رسمية تربط بين امرأة ورجل خلتهم زوجين شرعيين . . أنا ما أصدق إنك ليلحين تفكرين بهالطريقة !

- يمكن أنا متخلفة !

قلتها وأنا أبتسم مستخفة **بحداثتك** التافهة ، وبدا وكأنك بلغت طريقا مسدودًا ، لأنني أقفلت السمّاعة على الفور .

تكابر كي لا تتصل ، ثم تمطرني بالاتصالات ولا أرد ، لن أرد ، أبحث عن أرض ، عن مرسى : أفكر بأنني إذا أردتُ لعلاقتنا أن تستمر (وهو أمرٌ أريده) فسيكون عليّ أن أعيد صياغتها ، قررت - طالما أننا لن نرتبط بالطريقة التي أردت - بأن أمنح نفسي فرصة حب أي إنسان دون أن أشعر بأنني أخونك ، بأنني أخلص لك أكثر مما ينبغي ، وأبتهل لك أكثر مما ينبغي ، وأفكر بك أكثر مما ينبغي ، وأنك في

الوقت الذي تزعم فيه أنك تريني قلب الحياة وتسمعني موسيقاها الخفية كنت تكبلني بك ، تخنقني ، تمنعُ عني كل شيء ، إلا الأشياء التي تصبّ في لذتك الخاصة ، أردتُ أن أوسّع مدارك حياتي لتضم اهتمامات أخرى ، محاور أخرى ، أن أخطو خطوات وحدي وأملأ العالم على طريقتي ، أذكر أنني مارست أشياء ما كنت أفكر بها حتى ، نادي رياضة وشلة أصدقاء مجنونة ومعجبون ، بدأت أرسل نصوصي إلى الصحف وأحتفل بها على تلكم الصفحات ، أتسكع وحدي في الملاهي وأنصتُ إلى الأشياء بطريقتي ، و . . حسنا . .كنتُ أفكر فيك أحيانا ، وأشتاقك . .

في الأيام الأخيرة بدأت اتصالاتك تفتر مثل شخص جف ريقه من فرط النداء ، وكنتُ قد عدتُ بعد أن تأكدت من كوني قد تغيرت بالشكل المطلوب ، كانت زيارةً مفاجئة لك في محل الزهور ، كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، وكنت قد أنهيتُ محاضراتي وقررتُ بمزاج رائق أن أمنحك زيارة مفاجئة ، لم تكن لتصدّق نفسك ، بمجرد ما لمحتني هرعت إلى عصري بين أضلاعك وأنت تمطرني بالأيمان الغليظة (والله كنت حاس إني بشوفك! والله العظيم كنت حاس !) ، أحضرت لنفسك كرسيًا وجلست قبالتي تمامًا وقلت :

- بَشْبَعْ من شوفتك . .

بدوت مغتبطًا ، تجلس على الكرسي بشكل معكوس وتسند ذقنك إلى ظهر الكرسي وتراقبني بعينين شيطانيّتين ، أبتسم

وأسألك :

- شفيك؟

- أبي أخزنك بعيوني! أبي آكلك . . أبي . . يا حقيرة ولهان عليك! صايرة تهبلين! من وين لك هالجاكيت؟ وينـ . .

. . رنّ هاتفي الخلوي و . . كان الصوت ذكرًا ، وكان الاسم ذكرًا أيضًا ، وكانت ملامحك تسقط في الدهشة تترى :

- هلا سلمان . . زينة ، مشغولة شوي . . اليوم؟ لا ماقدر . . ليش؟ (ضحكة أفلتت هنا) . . ماشي ماشي . . الساعة سبع أوكي؟ باي !

لا تستطيع أن لا تسأل : منو سلمان؟!

أرد باختصار : صديق !

ولا تستطيع أن لا تسأل :

- صديق جديد؟

- يعني . .

- من متى تعرفينه؟

- يمكن أسبوعين ، ليش؟

- شلون عرفتيه؟

- تعرّفنا . .

- وين؟

- في سوق . .

وبدأت أضحك وأخبرك قصصًا عنه ، مثل أنه وضع ساقه على باب السيارة وقال بأنه لن يتزحزح إن لم آخذ قصاصة الورق التي تحمل رقمه ، وعندما رفضتُ فتح محفظته ونثر أوراقه الثبوتية تحت قدمي وكل نقوده ، وقال بأن كل ما يريده هو خمس دقائق . . وعندما رفضت هددني بأنه سيبدأ في الغناء وبأنه سيخلع قميصه و . . بدأت أضحك ، وأخبرتك بأنه من أولئك الغريبين الذين لا يأكلون إلا اللحم حتى على الفطور ، ثم رحت أضحك وأخبرك بأنه يتقن جميع اللهجات الإنجليزية ، وبأنه يستطيع تقليد جميع ممثلي هوليوود . . وضحكت أخيرًا ، وسألتك إن كانت البثور أعلى جبيني واضحة من تحت البودرة التي أضعها و . . هكذا ببساطة ، لأشرّع أسئلة أخرى . . منذ متى وأنتِ على علاقة برجال غيري وكم أصبح عددهم الآن و . . ماذا عني؟! أسئلة كثيرة قرأتها في عينيك ، عيني الرجل الشرقي التقليدي رغم حداثيته! لقد عرّيتك أمامك ذلك اليوم ، عرّيتك ببساطة . . .

فتورٌ يجتاحنا ، اتصالاتك انقطعت لأسبوع ، لم أحاول منعك ، لم أتصل ، وهبتك فرصة لتقرر الخطوة التالية . في تلك الفترة عندما كنت تتصل كان يتناهى إلى سمعي صوت موسيقى صاخبة ، كنت ثملا وتقول جملا غير مفهومة وتلفظ اسمي مثل شتيمة ، اتصلت مرة أو مرّتين وأنت في صحوك ، وكنت برسمية الأصدقاء القدامى الذين ما عاد يربطنا بهم سوى الماضي تسأل عن صحتي ، وعما إذا

كنت قد قرأت كتابا جديدا أم لا ، وكنتُ وقتها قد بدأت أغرد خارج السرب ، أقرأ كتبًا لم تخترها أنت ، وكانت هذه إمارة العصيان الثانية ، حتى قررتَ أن عليك أن تفعل شيئا لتوقف زحفي للخارج ، وبدأ الأمر من اتصالك :

- سعاد أبي أشوفك اليوم .

- اليوم؟ مشغولة . . نخليها باكر؟

- لا اليوم !

لم تكن تعطي أي تنازلات بمجرد أن تشعر بوجود آخر أمنحه أولوية .

- عندي امتحان مو دارسة له . .

- طز !

- فيه شي ضروري؟

- أبيك بموضوع .

- أي موضوع؟

- موضوع الزواج !

لا أصدق أنك يمكن أن تنطق كلمة كهذه حتى! كان الموقف سورياليا ، وشعرت بأصابعك تجوس في داخلي ، كنت مستعدة لفعل أي شيء في سبيل أن أمضي حياتي معك في زواج ، يبدو أنني ما زلتُ أحبك ، ويبدو أيضًا أنني أريدك ، **ويبدو أنني نسيتُ فاطمة كثيرًا . .**

- ماشي ، اليوم أشوفك الساعة سبع .

أقفلت الخط ، حتى دون تحيّة ، ووجدتُ نفسي في محل الزهورِ في الموعد تمامًا ، أجلسُ على المكتب قبالتك ، كما لو أنني المديرة ، كما لو أنك الزبون ، وأمامي فنجان قهوة تركية ، بدوت منشرحًا ، كأنك نجحت في أمر جسيم . .

- شلونك سعاد؟

- بخير . . إنت شلونك؟ من زمان عنك !

- إيه . . من يجد قومًا ينسى الآخرينا !

قلتها ، تلمّح بغيرة إلى أصدقائي ، ابتسمتُ وأنا أرتشفُ من القهوة ، كنت لحظتها تتأملني بعمقٍ بدا لي . . أكثر من اللازم ، تدخن بشراهة وأنت تراقب الفنجان ساهمًا بإفراط ، تسألني :

- نصعد المخزن أحسن؟ عشان ناخذ راحتنا . . ألحين محمد بيوصل ويستقبل الزباين .

لم تنتظر لأعطيك الرد ، نهضت واقفًا وحملتَ عني فنجاني ، وفنجانك أيضًا ، وصعدت الدرج وأنا أتبعك ، وكانت نظراتي تسيلُ باتجاه الباب وأتساءل كيف ستترك المحلّ فارغًا هكذا؟ كانت المرة الأولى التي أدخل فيها مخزن المحل ، كانت غرفة باردة مثل ثلاجة عملاقة ، تضمّ سلال أزهارٍ ذابلة وأخرى أحضرت لتوها من هولندا ، واتضح لي أنك أعددت المكان سلفًا ، وجدتُ كرسيين متقابلين ، أغلقتَ الباب ، أقفلته ، وتساءلتُ إن كان الأمر بهذه الخطورة ، جلستُ

في مقابلك ، أرتشفُ قهوتي ، متشنجة بحماسة ، أنتظر أن أسمع كلامًا سحريًا .

- سعاد أنا أحبك .

- أدري . (ألا أبدو غبية هنا؟)

- إنتي تعرفين نمط حياتي ، تعرفين إن ما ممكن أتغير عشان أحد .

- إلي يحب وحدة يحفر الصخر وراها . (سمعت هذه العبارة في مسلسل رديء)

- سعاد هذا كلام روايات ، بس الحقيقة ما في إنسان يتغير عشان أحد إلا شكليا ، وبعد الزواج تلقينه يرجع لذاته الأصلية ، هذا معدني سعاد أنا ما أغشك .

- بس . .

- سمعيني تكفين . . هالمرة سمعيني وبعدين أنا أسمعك .

أرتشف رشفات أُخر ، تستطردُ وأنت تطرد عصابة دخانٍ من فمك :

- الزواج مو لعب سعاد ، الزواج مصير ، والله أنا مادري إنتي شنو متخيلة ، إنتي ليلحين صغيرة . . أبيك تعيشين حرة عشان تكتبين حرّة !

- أنا مابي أعيش عشان أكتب ، أبي أعيش عشان أعيش !

- غلط! إنتي مبدعة غير باقي الناس ، حرام تفكرين بهالتقليدية ، موهبتك تضيع ، سعاد إنتي كنز والزواج راح يدمرك ،

الزواج يميت الروح ! الزواج هدر للإبداع . .

- أنا ما اهتميت بالكتابة إلا عشانك .

- بس تقدرين تعيشين مع إنسان مثلي؟ سعاد حتى لو تزوجنا . . أولا أبوك ما راح يوافق . .

- مو أبوي المشكلة !

- بعدين إنتي ما راح تتحمليني . . سعاد أنا ماقدر أتزوجك ، أحس إني أجرم بحقك !

عرفتُ - عندما وصل الحوار إلى تلك النقطة - بأن ما قطعت الطريق لسماعه لن يقال ، وبأن الأمر مجرد طبطبة على الأكتاف ، تخدير لمشكلة ، أو إقصاء لها ، شعرتُ بالخيبة ، لم أرغب باستكمال الحوار ، وبدأت أشعر بألم في معدتي ، نهضتُ وأنا أشعر بدوار قويّ ، التصقت بالشبّاك . . أتأمل ليل الكويت ، وأتساءل عما سأفعله ، عندما وجدت يدك تلتف حول خصري ، ورأسك مدفون في رقبتي ، وتساءلتُ - في غمرة دواري- ماذا دهاك ، حتى ألفيتُ نفسي محشورة في الزاوية وملتصقة بالجدار و . . كانت أنفاسك نتنة وقريبة أكثر مما ينبغي و . . أقتل المبادرة وأركلك بين فخذيك ، تسقط ، تتلوى وتلعنني . . أسرعُ خارجًا ، أفتح الباب بأيدٍ مرتعشة وأسقط عند العتبة ، أحمل جذعي عاليًا وأقفلُ الباب ، تضرب الباب بقبضتيك ، تقول بأن في وسعك أن تزيل الألم ، بأنني أتألم لأنها المرة الأولى فقط ، أنه مجرد كوكايين في القهوة و . . المخدّر ضروري لشحذ موهبتي

و . . !

أقحمت إصبعي في حلقي عميقًا عميقًا وتقيأت . . سمعتُ خشب الباب يتكسر ، نهضت من مكاني وما زال الغثاء يتفجر من داخلي ، أركض وأستفرغ ، على ملابسي والأرض والأزهار ، أركض كالمجنونة وألفظك . .

XII

الأربعاء

٩ أبريل ٢٠٠٣

السابعة مساءً

عندما استيقظت كانت الساعة تشيرُ إلى الثانية عشرة ظهرًا ، وجدتني نائمة على بطني أتوسّد أوراقًا كثيرة ، كان على وجهي آثار بكاء ولطخة حبر بنفسجية ،لقد نمتُ جيدًا ، شعرت بسلام غريب ومرارة في فمي وألم في رقبتي ، قرأت الأوراق التي كتبتها وأناً بالكاد أتذكر شيئا ، إن مفعولها ما يزال ساريًا . . كهذه الحرب ، **لقد سقطت بغداد** ، نتأمل اليوم من وراء الشاشاتِ ذهولاً ساحقًا ، وجموعًا غفيرة ترقصُ في الشوارع ، وصور تساقط الطغاة الفانين ، وهمهمات متشككة ، ورجال يضربون صور الطاغية بالنعل ويصرخون (ولكم هذا شسوى بالعراااااق!) ، وأطفالٌ يتبولون على تماثيل تسقط . . أوراقي

سقطت أيضًا / تحرّرتُ أنا .

أراقبُ - بإعياء ومن تحت الأغطية - احتفالية بغداد الموشاة بأوجاعها ، أوجاع تبدو أزلية ، أشعر بالعجز عن المتابعة ، عن التداخل معهم ، متعبة ، وكأنني ركضتُ طوال الليل ، أرى فيما وراء التمثال المتهشم بين أقدام أطفال العراقِ . . وجهكَ ، وأنفخ بثقل ، يتبدد شيئٌ ما ، ينتهي شيءٌ دون ندم .

اتصل مشعل ثلاث مرات ، يباركُ ما سمّاه (الحقيقة) ، كان سعيدًا لأنه يشعر بأن فرحة العراقيين جاءت بمثابة الانتقام من كل من صوّر الكويت بصورة العميل المتواطئ ، كان سعيدًا لهذا السبب أكثر من سعادته من اقتلاع الرأس الفاسد ، ولكنني لم أكن أرغب بمناقشة أي شيء ، سألته فقط :

- تحبني؟

- أموت عليك !

- متأكد؟

- أموت عليك!

- تتزوجني؟

يبدو لي أنه يبكي ، يردّ :

- سعاد ودي أرقص !

- ارقص . .

أبتسم ، وكأنني أراه . . يتلثم بشماغٍ أحمر ويرقصُ بالسيفِ

ليستحضر أرواح الصحراء القديمة ، كنتُ سعيدة لأنني أجعله سعيدًا للمرة الأولى ، كنتُ سعيدة لأنه سعيد ، ولكنني في داخلي متعبة ، وأريد أن أفكر بشيء جميل ، حفل زفافي مثلاً . . لم يعثروا على صدّام بعد ، ما زال البحث مكثفًا ، لا يهم ، ومن يهتم؟ إن ما ينبغي أن نكترث له حقيقةً هو سرب الفلامنغو !

- مشعل . .

- عيون مشعل !

- بروح الشويخ . .

- ليش؟

- بشوف الفلامنغو .

- مافيهم إلا العافية حبيبتي ، خليها باكر . . شيطلعنا الحين؟

أنظر إلى بهجته من بعيد ، من بعيد ، ولكنني أبتسم ، غدًا سنلتقي ، سأكون قد تخففت مني ، سيكون انسجامنا قد غدا أسهل ، سنتحدث - بعيدًا عن الحرب والشطحات - عن زواجنا الوشيك ، ولا شيء آخر .

أنا أيضًا وجدتها[٨] ! الحربُ فضيلة ، الإنسان رذيلة ، القتل مبرر وأنا - بلا فخر - قاتلة ، لا أقتل الذباب وحسب ، بل الناس أيضًا ، أو على الأقل . . أرغب بذلك! نحن مجرد سفلة ، كدتُ أقتل إنسانًا! في الشاطئ ، رأيته ، احتجت ذلك ، أردتُ أن أغطس رأسي في رأسه وأصدق بأن الحياة حلوة وأخطط لحياتنا المشتركة ، اللعنة . . أنا قادرة على القتل ، هناك في عرض البحر ، أحدق في الأعين المذعورة وأرى عبرها تكشيرتي الواعدة ، إن كل ما نقوله عن الإنسانية دجل ، نحن قادرون على الإيذاء بشكل لا يصدق ، الآن أفهم : الحرب منطقية ومعقولة ، إنها تماشي فطرتنا . . لا أذكر إلا ضروبا عشوائية من اللهاث ، مثل ضربات غاضبة لريشة على ورقة بيضاء ، نعم . . كنتُ

(٨) وجدت هذه الصفحة دون تاريخ ، ولكن الأرجح أنها كتبت في الخميس ، العاشر من أبريل ، وفي ساعة متأخرة من الليل .

على ذلك النتوء الصخري أضم وجهي بين يديّ . . لنتزوج ونسافر بسرعة ! رأيتها في عينيه ، رغبة مكسورة الجناح ، الرائحة تلاشت ، كنت أزدريه وأحتاجه ، كنت في تمام ضعفي وعنجهيّتي ، أشحتُ بوجهي وكان ثمة موجة يتيمة تبدو أسرع من الأخريات . . قادمةً نحونا ، تبًا ، لماذا أهتم بموجة؟ لقد وضع يده فوق يدي . . وتساءلتُ هل يفعل ذلك بدافع الشفقة أم بدافع الرغبة ، وضعت يده على كتفي وضغطتها بقوة وصحت «إذا شفتني متضايقة . . حط ايدك على كتفي ، فاهم؟ مو على ايدي ! فاهم؟» كان الانفعال يفلتُ من أصابعي إذ أنا أتذكر مشاهد قديمة تجمعني بك وأنت تضغط كتفي بيدك العملاقة كما لو أنك تكوّره ، ذُعرتُ . . رأيت فيما يرى المعتوه أنني راغبة بترويضِ مشعل ليجيء أنت ، هل كان انتقامًا؟ هل أثأر من الرجل الذي أراد تشكيلي بتشكيل آخر على هيئته؟! لقد تحولت بدوري إلى طاغية ، وهو . . بدا غبيًا بشكلٍ يدعو للرثاء ، لا يعرف هل يواصل الضغط على كتفي أم يبعد يده أم . . يطأطىء كتلميذ مهذب ويردد . . حاضر يا حبيبتي ! ولكنه لم يجزم بالأمر ، بقيت يده معلقة ، ضربتها بقسوةٍ وصحت «أنا قلت إذا زعلت ، مو ألحين ! ألحين أنا فرحانة . . فرحانة ! وأبي مهر . . عشرين ألف دينار ، شرايك؟» ثمّ بدأت أدمع ، لا أدري لمَ ، أردت أن أخبره . . مشعل مبروك لقد تحررت مني والآن اغرب عن وجهي لأني . . لا أريد الزواج منك ولا تدميرك بالذات ، لا أستطيع أن أراك تتحول إلى مسخ بسببي ، ولكنها

الحميمية . . عندما توجد في الوقت الخطأ ، غرستُ في وجهه أنفاسًا وقحة وسألته أين تضع يدك عندما أحزن . .

- على كتفك . .

بلع ريقه ، ابتسمت شياطيني ، وأين تضع يدك عندما أكون سعيدة؟! كنتُ أتحسس مفاتيحة من خلال جسدي ، أتساءل كيف سيتصرف بدون إرشاداتي! واتسعت حدقةُ الابتسامةِ كثيرًا على ما يبدو لأن أصابعهُ بدأت تتحسس شفتيّ وقال «هنا» وابتسم . . أسأله : هل تعتبر نفسك جريئا؟! يهز رأسه نفيًا ، ألا تريدُ أن تكون جريئًا؟ ربما . . ربما؟ ألا يخطر لك أنك تحتاج أطنانا من الجرأة معي؟! لا . . يخطر لي أني أحتاج أطنانا من الصبر . . هل هذا ما تريده حقًا؟ هذا ما تريدينهُ أنتِ . . وماذا عنك؟ أريد ما تريدين . . اللعنة ، يدهُ الخجلى تعابثُ الرمل لحظتها ، ربما لأن نظراتي انطلقت بغضبٍ لم أبذل جهدا للسيطرة عليه ، بدأتُ أصرخ : إنت منو مشعل؟ أنا ما أعرفك ، ما أعرفك إلا من خلالي! هل يريدُ ما أريد حقًا؟ هل يريدُ ما أريد؟ أريدُ أن تموت يا مشعل ، هيا متْ من أجلي وأخبرني بأنك تحبني حتى النهاية ! العظمة الصغيرة في عنقه ترتجفُ ، عينه ترمشُ : هل جنّت؟! هيا متْ ! أهشّ عليه بيدي ، أقبض على أكمامه ، أجرّه إليّ . . ينهض ، يقف أمامي ، أدفعه . . كش ! كش! البحر يحاصرنا ، أنا ومشعل ، ولعناتي الذاهبة إليك ، هيا متْ ! أهتف و . . يحدّق مذعورًا «يا مجنونة !» ، أقبض على قميصه ، قميصه الثمين التافه ،

(مهر عشرين ألف !) ، أحاول إغرافه ، يصرخ «سعاد !» ، أجرّه أكثر ، تنزلق قدمي . . أسقط في الماء ، يسقط فوقي ، و . . تعانقنا . . وبكيت ، بكيتُ حتى ملأت ضحكاتي البحر والسماء . . الضحك ، والدموع التي لم يلحظها - لحسن الحظ أو لرداءته - . . يلهثُ مذعورًا ، أقهقه مثل طاغية ، أقبض على بطني ، كان الماء قد دخل في أنفي وأذني ، كنتُ أضحك . . كنتُ كتلة ماء رجراجة تضحك ، البحر إذًا . . يضحك طوال الوقت ، ومشعل ، يضحك قليلاً فقط ، بخجل . . ضحكة . . ضحكتين ، لم أزجره ، يضحك مطمئنا لكوني لن أصرخ فيه ، كانت المرة الأولى التي نضحك فيها معًا ، أجده يضحك في وقتٍ أكون فيه أيضًا . . مستغرقة في ضحك شهي ، ونحيبٍ خفيّ ، شعرتُ تجاهه بالشفقة ، اشتهيتُ أن أضمه وأخبره بأن لا بأس إذا ضحك أحيانًا ! بدا - حتى في ضحكته اليتيمة تلك - راغبًا في إسعادي ، حتى تجاسر وأطلق من صدره (مجنونة) ، وتحوّل ضحكي . . إلى صراخ ، ولكنه لم يفطن إلى الأمر واستمرّ يضحك : خفت منك! كان يحسبُ الأمر مزحة . . المسكين! ستختنقين يا مجنونة! أضحك وأنا أنظر إليه مثل شخصٍ ولد من جديد دون أن يعلم ، وأتساءل . . ماذا لو لم ننزلق؟! أسعل ، أضحك وأسعل ، وأشعر بصدري يتمزق إذ أنا أجر خطواتي الثقيلة إلى الشاطئ ، يتبعني بخطواتٍ قلقة (سعاد؟!) أسعل . . يبدو اسمي غريبًا؟ صدري يؤلمني ! ويناديني باسمٍ غريب «سعاد؟» وأسعل ، ركبي تلامس الرمل . .

يكتشف بأن جوقة الضحك تلك كانت ضربًا من البكاء ، يدهُ صارت فجأة بارعة في القبض على كتفي وصنع دوائر ، إنه يصنع أرغفة مدورة من كتفي ، إنه يدوّره ! إنه - في تلكَ اللحظة - **أنت جداً** ، وهتفتُ باسمك ، باسمكَ أنت - عليكَ اللعنة - فضاعت ملامحه ، وبدا وجهه وقد تشنج ، تراجع خطوة ، خطوتين . . ثم أشاح عني وراح يركضُ مذعورًا ، يركضُ ويصرخ : **حمار ! حمار! حمار !**

٤ أغسطس ٢٠٠٤

المؤلفة

* بثينة وائل بدر العيسى .
* من مواليد الثالث من سبتمبر ١٩٨٢ - الكويت .
* حائزة على شهادة البكالوريوس من كلية العلوم الإدارية ، جامعة الكويت ، تخصص تمويل ومنشآت مالية .
* عضو في رابطة الأدباء الكويتية .
* صدر لها «ارتطامٌ . . لم يسمع له دويّ» - رواية ، عن دار المدى ٢٠٠٤ .
* لها تحت الطبع «عروس المطر» - رواية ، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
* لها موقع على الانترنت www.Bothayna.com

F R E N Z Y

رواية
NOVEL

سعار

.. أعرف على - أقلّ تقدير - أنّني لو أردت أن « أعيد » كتابة (سعار) ، فلن تجيء بالزخم ذاته ولا بالوحشيّة ذاتها الّتي أردتها لها ، ولا أنا سأعيش لحظة الكتابة طازجة ومدوّية تكنس العالم وتأخذه إلى حيث لا أدري .. ولكنّني ، أيضًا ، أعرف أن لا شيء يقف أمام حريّة الكاتب في التمدّد خارجه والانسلاخ عنه وتجاوز مقدرته ، ولا حتّى الورق ! ولأجل هذا نفسي « حقّ » التجرّؤ على نصّي القديم وتغييره بما أعتقد أنّه يصبّ في صالحه ، وبما لا يتعارض مع حقيقته .


ISBN 9953-36-915-1
9 789953 369150

